

المسألة الإسلامية

تاريخ الشرق الإسلامي في قرن كامل

أنور الجندي

المؤلف

- (١) قضايا الأقطار الإسلامية (أول وثاني) « نقد »
- (٢) الإسلام يزحف إلى قواعده
- (٣) انهيار الحضارة الغربية « نقد »
- (٤) قائد الدعوة
- (٥) تاريخ الاحتلال الإنجليزي لوادى النيل (خمسة أجزاء)
 - (١) أخرجوا من بلادنا « نقد »
 - (٢) مناورات السياسية
 - (٣) بين لاطوغلى وقصر الدوباره
 - (٤) تاريخ الأحزاب السياسية
 - (٥) النيل لا يتجرأ
- (٦) الأخوان المسلمون في ميزان الحق « نقد »

باسم الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه

بيعة

أستاذنا الامام ومرشدنا الحبيب وقائدنا المظفر وأخونا الأكبر
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

منذ أن عرفناك ، آمنا بأنك على الحق ، تسير على نهج محمد ، وتقتنى سنته ، وتبلغ رسالته وتدعو بكتاب
ربه لا تحيد ولا تتحول .

وكل يوم يمضى فى تاريخ هذه الدعوة السكرية يزيدنا إيماناً بالدعوة وثقة بقائدها ويدعم هذا فى أنفسنا
تدعياً بليغاً ، وقد تكشففت لنا الأيام فى هذه القيادة عن الرجولة الصائبة حين ترمى ، الحكمة حين تعمل ،
البصيرة حين تواجه الظروف ، المحنكة حين تقاوم الأعصار ، الحازمة حين تواجه العواصف .
وما يزال هذا الحق يرقى حتى علا عن الشبهة والمظنة وسما عن المطمع والغرض وازدردى بكل مطلب غير
وجه الله أو غاية غير مرضاته تبارك وتعالى .

تشهد بذلك حياة كلما عفه عن رغبات الدنيا ، عفه عن قدره ، وازورار عن تمسكن ، عفة المؤمنين
المقتدين ، وسمو المخلصين ، وعزوف الشهداء ، ولذلك قصص وعبر لا تكتب ، وليس كل ما يعرف يقال ، بل تظل
هذه الأحداث خفية بينك وبين ربك ، يحزبك بها ويمدك بالتأييد والتثبيت .
منذ أن عرفناك علمنا أن دعوة الأخوان هى الامتداد الطبيعى المتجدد لدعوة الإسلام ، على طريقها
تسير ، وبنهجها تقتنى ،

ومنذ أن عرفناك بايعناك على الجندية للدعوة ملخصه فى الفناء فى القيادة ، وكل يوم يمضى يزيدنى ثقة فى نصر ،
الله لك فلطالما رأيتك صابراً محتسباً ، ومجاهداً مناضلاً ، لاتكل ولا تجهد ، تشق طريقاً صعباً ، وتنحت نحتاً فى
الصخر الصلد ، فتتير ظلامه وتشرق شمس ، ورأيت الزوابع تثور من حولك فما أن تصل إليك حتى تتكسر
وتتحطم على صخرة الإيمان الثابتة التى وهبها الله إياك . ورأيتك تقابل الأحداث والخطوب بالقلب الثابت
الوائق والواجه الباسم الباش والنفس المطمئنة الراضية لا تخاف شيئاً من دون الله ولا يخشى أحداً سواه وإنى
لا تنهض الفرصة فأجدد البيعة وأثبت العهد أن كون دائماً على إيمان وثقتى بالدعوة والقيادة كلا لا يتجزأ ووحدة
لا تنقسم . ومن حق الدعوة علينا أن نكون لقائدها طائعين وبه واثقين ولأمره منفيدين نعتقد فى رأيه الحق ونفترض
فى أنفسنا الخطأ ونضع حق القيادة فوق حق الأهل والنفس والقائد ولا شك رمز الدعوة ومظهرها الحلى
أنا قد عاهدناك على أن نبيع أنفسنا وما نملك لله خالصين مخلصين فادفع بنا إلى الوجه الذى تريد تجدنا
لدعوتنا صادقين ولقائدنا طائعين مخلصين ؟

تصدير بقلم فضيلة الأستاذ الامام

حسن البنا

المُرشد العام للاخوان المسلمين

الوطن الاسلامي

بين أطماع الاستعماريين وآمال الشيوعيين

أخذت الدول الأوروبية منذ قرون خلت تفتح أعينها على ما في الشرق من خيرات وتنصب الجبال والشبابك وترسم السياسات البعيدة المرامي والمقاصد لتقسيم تركة الرجل المريض ولتقنص هذا الصيد السمين . وتسابقت في ذلك إنجلترا وفرنسا وأرادت كل منهما أن تتغلب على الأخرى وأن تبسط نفوذها السياسي والثقافي والاقتصادي ، ولكن القاهرة الأصل تغلب في النهاية وكان يخرج من كل شوط من أشواط هذه المنافسة بما يريد .

فإنجلترا هي التي حطمت أمبراطورية محمد علي وحالت دون مصر ودون ثمرات حروبها وفتوحها وانتصاراتها وقضت على أسطولها وحدت من قدرة جيشها ووقفت لها بالمرصاد تقاوم كل نهضة فيها وتحول دون أي خير يأتها حتى انتهى أمرها باحتلالها والاستئثار بالسودان دونها .

وإنجلترا هي التي أوقعت العداوة والبغضاء بين الترك والعرب في إقليم الجزيرة ، وأذكت نار الحقد والحسد فيما بينهم حتى جندت من العرب جيوشا تناصرها وتزاملها في السلاح ، وتقف إلى جانبها في وجه إخوانهم في العقيدة والدين ، ثم قلبت لهم ظهر المجن فاحتلت أرضهم وباعت فلذة كبدها الأوطان لليهود ، وتربصت بشريكها فرنسا الدوائر حتى أخرجتها من الميدان وطردتها من الجزيرة نهائياً لعلها تستطيع أن تنفرد بشيء من السيطرة والسلطان .

وإنجلترا هي التي أغمضت العين عن فرنسا لتلتهم أفريقية الشمالية وتبتلعها لقمة سائغة في نظير إغضاها عن عدوان إنجلترا على مصر والسودان ، ثم هي التي تضيق عليها الخناق الآن وتحاول بكل سبيل أن تقصصها عن هذه الأرض ليخلو لها حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولتقيم على آثارها أمبراطورية أفريقية الانجليزية كما يحلمون .

وإنجلترا هي التي حطمت دول الإسلام العريضة المجيدة في الهند ، وأوقفت تياره المتدفق على هذه البلاد بالخير والبر والرحمة والنور والهداية لتقيم للوثنية نصبا وتمائيل ومحازيب مادام ذلك سيمكن لها في هذه الأرض ويدر عليها ما تطمع فيه من خيراتها وثروتها وموادها الخام ويجعل منها سوقا نافقة للبضائع الانجليزية .

وإنجلترا هي التي وقفت على باب اليمن لتسد عليها المنافذ ولتقيم حولها حصارا بریا وبحرياً في عدن والمحميات فلا تشم نسيم الحرية ولا تجد إلى الاتصال بالعالم من سبيل .

إنجلترا هي التي فعلت بالعالم الإسلامي ، وبدول العروبة والإسلام الأفاعيل ووقفت لها بالمرصاد ثلاثة قرون أو تزيد تحطم من كيائها وتهد من بنيانها حتى تم لها ما أرادت وأصبحت هذه الدول جميعاً الآن منطقة

نفوذ لها تتحكم في مقدراتها وتتدخل في أوضاعها وتضع العقبات في طريق قوتها المادية والأدبية والعسكرية والاقتصادية .

ولكنها مع هذا كله عجزت عجزاً تاماً عن قتل روح الشعوب العربية والإسلامية فلم تهن ولم تضعف ولم تستسلم لهذا الجبروت يوماً من الأيام ، وهذه الثورات المتعاقبة في مصر وفي العراق وفي فلسطين وفي سوريا أقرب شاهد وأوضح دليل .

وظهرت روسيا في الميدان ترسم لنفسها مجاها الحوى ، وتطل مراكبها على البحر الأبيض المتوسط ، وتدخل في منطقة نفوذها أوروبا الشرقية جميعاً وتطالب بسهمها الحرام في أفريقيا وآسيا تنافس هذا النفوذ القديم في القارتين معاً ، ويبدو هذا الصراع واضحاً جلياً عملياً في مناطق النفوذ والاحتلال وسياسياً في مؤتمرات الصلح وجلسات مجاس الأمن وهيئة الأمم المتحدة .

وأغرق المتنافسان في الخداع ، ولبس كل منهما مسوح الرهبان وجلود الضأن على قلوب الذئاب ، وحاول كل منهما أن يستر الطمع المادى بدعوى رسالة السلام والإصلاح تقدمها انجلترا باسم الديمقراطية وتقدمها روسيا باسم الشيوعية .

والعالم العربي والإسلامي والشرق كله يترقب وينظر في حيرة بين هذه الإطاع والآمال ، ويتبها للعمل ولكن لم يعمل بعد .

لقد خطت انجلترا خطواتها البارعة في ميدان السياسة وهي الخيرة العليمة بهذه الخطوات فجمعت دول العروبة في ظل الجامعة العربية وهي تحاول أن توسع النطاق بربط هذه الجامعة بميثاق سعد آباد ولا أظنها ستقف عند هذا الحد حتى تربطها بالهند الجديدة وبما وراء الهند من أمم إسلامية وأصقاع ولعلها تذهب إلى أبعد من ذلك لاحبا في سواد عيوننا ولا رغبة في تقويتنا وتجمعنا ولكن لتقيم من هذه الأمم سورا أمام إطاع خصومها وأعدائها وإن شئت قلت حلفائها وأصدقائها وقاتل الله رياء السياسة .

ولكننا مع هذا يجب أن نرحب بهذه الخطوات وأن ننتفع بها وأن نستفيد منها وإن نحو لها لمصلحتنا نحن وذلك بصلاية الحكومات ويقظة الشعوب . وإن يمر بنا ظرف ابدع واوفق واكثر ملاءمة لتحقيق ما نرجو من استقلال ووحدة كهذا الظرف الذي نحن فيه .

فعلينا إذن ان نتنفع بالفرصة السانحة والاندعها تفلت من أيدينا أبداً . يجب أن تتصلب الحكومات وتنشدد ولا تخشى التهديد والوعيد فهو سراب خادع لا وجود له ، ويجب أن تنيقظ الشعوب وتنهض فان الكلمة لها والأمر امرها وعلينا ان نضع امام العقيدة عقيدة ومعنا الحق ومعهم الباطل ولا يستويان .

علينا ان نعلن الإسلام بأصوله السابقة وتعاليمه العالية ، وقواعده الحقبة امام ديمقراطيتهم التي ترادف الفوضى والآباحية وامام شيوعيتهم التي ترادف الألحاد والدكتاتورية الدولية .

وعلينا ان نتجمع ونتشجع ونساند ونتكاتف ونعمل ونجاهد في كل ميدان ، ميدان الدعاية الدولية وميدان الكفاح العملي حتى نصل ، وإنا لواصلون والله غالب على امره ؟

هي خصرتة ليدسلام

تنسم الفجر ، وأشرق النور ، وبدأت بواكير الصباح ، زاهية مشرقة ، ريانة بالعطر والندى .
وأقبل عصر البعث الجديد والايمان الجديد على الشرق الاسلام يدفع الظلم والظلمات دفعا ، ويحطم حصون الاستعمار والاستغلال والاستعباد ، والمسلمون بحمد الله في يقظة جديدة ، وإشراق نفس ، يزحفون إلى قواعدهم وفي إهابهم إيمان بالحق الذي بعث الله به نبيهم وثقة بالنصر الذي وعدهم الحق تبارك وتعالى به ما أخلصوا له الوجه وانتفى من قلوبهم الخوف لسواه أو الخشية لغيره .

ولم يقف هذا البعث عن حدود العمل لتحرير الوطن الاسلامي من الغاصب الدليل ، ولسكنه وصل إلى أبعد من ذلك بكثير ، إذ أنه أثار قضية إعداد المجتمع إعدادا إسلاميا وصبغه بالصبغة الاسلامية وتوجيهها وفق هدى الشريعة السمحة بتنفيذ أحكامها وإقرار تشريعها .

والواقع أن القضيتين قضية تحرير الأرض الاسلامية وقضية الدعوة الاسلامية كلتاهما مرتبطتين تمام الارتباط ، متصلتين تمام الاتصال تكاد تكونان وحدة : المقدمة والنتيجة ، أو الغاية والوسيلة ، فلا يمكن للأوطان الاسلامية أن تتحرر إلا إذا فهمت رسالتها الاجتماعية والروحية فهما صحيحا وهي لن تستبق هذه الحرية في يدها وتدعمها في وطنها إلا إذا أقامتها على أسس من الشريعة الاسلامية وقواعد من الصبغة الاسلامية التي توج بها الاسلام الشرق منذ طويل والتي هي الحائط القولا لآزى القوى في وجه الاستعمار .

والاستعمار يعلم ويفهم ويقدر أن هذه الريح الاسلامية حينها يفوح غيرها وينتشر شذاها وينهب ركبا ويتأجج نورها تشرق الدنيا بضائنه وناره فتلمع القوة في إهابه ، فيكون ذلك هو اليوم الأخير في حياة الاستعمار .
فما قام الاستعمار إلا في عفلة من تعاليم الاسلام وما عاش إلا على نضال جبار في أقصاء روح الاسلام وإبقاء مظاهره وهوامشه وإخفاء لبابة وحجب حقائقه

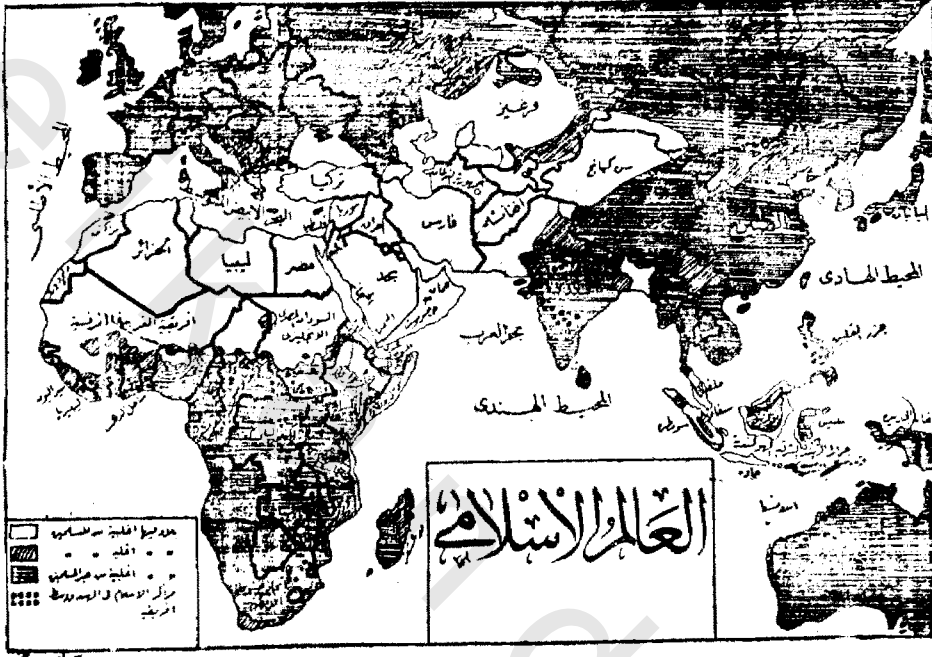
ولقد بقي الاسلام قرنا كاملا يخشى كلمة الاسلام وما يزال يلح عليها حتى اختفت وراء أسماء خادعة كالقومية والوطنية والمصرية وكان يفهمنا دائما أن الاسلام دين وطقوس وروحانية وعادات هي علاقة بين الإنسان وربّه أما أن الإسلام حكم وتشريع ودولة ونظام وقانون ودستور وجهاد وقيادة تسيطر بتعاليمها القرآنية الربانية السبأوية على كل ميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والقانون والقضاء والوطنية والمجتمع فهذا ما كان الاستعمار يشككنا فيه ويبعدنا عنه ويحاول أن لا نعلمه فإذا علمناه فلا بد من تحريفه أو نتمضه .

ولكن ذلك كله كان له نهاية ، ولا بد أن تتداول الأيام الأمم يقظة وقوة ، وضعفا وهوانا ، وما القوة وما الهوان إلا أحداث الطبيعة التي لا تتخلف في جسد الأمم والشعوب .

وهكذا ترانا وقد استيقظنا مرة أخرى على إنكار للحضارة الاباحية والثقافة الاحادية وعلى خصومة للاستعمار الظالم والاستعباد الظالعي والاستبداد المرير بعد أن ألهبتنا سياطه وجردتنا قيوده من كل حق وحرية وكرامة ، نعم ترانا اليوم قد تفتحت عيوننا إلى الحقيقين في وقت واحد وإلى النضال في ميدانين معا

فلا يمكن قيام تشريع القرآن وقواعد الاسلام في وطن مستعمر فلا بد من حرب للمستعمر ونضال للغاصب ولا يمكن بقاء الوطن الاسلامي حراً عزيزاً إلا بسياج من هذه القوة الربانية الكاملة ، قوة التشريع الاسلامي والصبغة الاسلامية .

المسألة الاسلامية



أريد أن أحدد موضوعي هنا تحديداً دقيقاً فالكلام عن المسألة الاسلامية قد يفهم على أنه أحد هذين الشقين : الوطن الاسلامي أو الدعوة الاسلامية أو كليهما وهو فهم واسع فسيح الجنبات . وكلما كان الموضوع محددًا كان الكلام فيه واضحاً جلياً والغرض ظاهراً سليماً . فنحن هنا نتكلم عن الأرض الاسلامية أو قضية الوطن الاسلامي . وهي قضية الصراع العنيف بين الاقطار الاسلامية العربية وغيرها الموحدة تحت لواء الخلافة والقرآن والمجد وبين الاستعمار الصليبي الغادر الظالم المحتقن وراء الأسواق والخامات والرأسمالية والحضارة البربرية الاباحية . وكيف كان هذا الصراع عنيفاً حاداً ، وكيف كان المستعمر يطغى ويستبد ويظلم ويستطيل على أهل الوطن الاسلامي فيجردهم من كل حقوقهم وإنسانيتهم ، وكيف كان يفسد عقائدهم وأخلاقهم ونظم مجتمعاتهم ويجرمهم إلى الدجل والظلام والاثم . وكيف مزق الاستعمار هذه الأمة الموحدة فلبل اتجاهاتها وتفكيرها . وقتنها بزعاماتها . ثم نشرح قضايا هذا الوطن الاسلامي القومية الوطنية التي قامت بعد ذلك . وميادين الصراع الجديدة بعد الحرب الأولى وموقف المسلمين والعرب من الوحدة والجامعة وماذا ينتظر في القريب على ضوء هذه الأحداث .

أما الحديث عن الاسلام ذاته كدعوة ورسالة ونظام . وكيف واجه هذه العواصف الهوج وما هي الاتجاهات والمنافذ التي زحف منها الاسلام وما هو أثر الحضارة الاستعمارية فيه - وكيف امتد في آسيا وأوروبا وأفريقيا .

وما هي قضية الشك والاحاد والتبشير والتغريب .

وما هي دعوات التحديد واليقظة سلفية وصوفية وسياسية ، وهابية وسنوسية ومهدوية . وما هو موقف العلماء والمجتهدين والمجددين كشامل وعبد والافغان وهل صح موقفهم أم أنهم أخطأوا فأخفقوا ذلك كله حديث لا موضع له هنا وإنما بمجاللة رسالة أخرى هي رسالة « تاريخ الدعوة الاسلامية » ومعنى هذا اننا هنا في دراسة سياسية جغرافية محضة وأن تلك دراسة تاريخية اجتماعية وليكنهما لا ينفصلان لأنهما يجمعان قضية الاسلام (دعوة ووطن) وعذيري في فضلها ضخامة البحث وعمقه واتساعه .

* * *

هل هناك مسألة إسلامية ؟

الدلائل الصادقة المدعمة كلها تثبت أن الخصومة بين الوطن الاسلامي وبين الغرب كانت خصومة دينية مذهبية، فإن هذا الاستعمار الغاصب الظالم في لونية المقنع والسافر ما هو إلا مظهر (ناعم) للحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على العالم الاسلامي في القرن السابع الهجري . وليكنها ليست ثوبا من المصالح والمواصلات والحامات والأسواق .

وأنها كانت رغبة انهنز لها الغرب فرصة ضعف الشرق واغفائه لهجوم مباغت ، تجارى حربى، مركز متصل لا يقف في جهة شيء .

تجب هذا الاستعمار في أيام قيام الدولة العثمانية ومنار الخلافة ثم سفر حين هدم هذه الدولة العاتية التي قاومت الفناء أربع قرون وهنا تكشف الاستعمار عن نهم عجيب وقاتل عنيف على احتلال المواقع والسيطرة على الموانئ ومفاتيح البحار .

وترى هذه الخصومة بين الغرب الصليبي والشرق الاسلامي في أن الدول المستعمرة كلها غربية والدول المظلومة المحتلة كلها شرقية مسلمة ، وإنه لا توجد دول غير إسلامية محتلة ولا توجد دول إسلامية حرة وترى دليلا لهذا المعنى في هذا التآمر على كل يقظ فذ في الشرق الاسلامي يقوم بدعوة أو يحاول جمع الشعب الممزق أو يطعم الوطن الاسلامي بدم جديد كجهد على الشريف حسين وغيرهما فلقد تأمرت أوروبا على الأول وتجمعت على ما بها من من خصومة على حربه والسكيد له وتمزيق دولته وهدم بنيابه وطعن الشريف حسين من الخلف وأعطته اليهود والموائيق ثم لم تنقضها فحسب بل أنكرتها وتبرأت منها واستغلت في إيقاد الثورة العربية وتجنيد العرب المسلمين لقتال الأتراك المسلمين وإجلاءهم من الحجاز وفلسطين وسوريا ثم مكنت نفسها فضربت بعهودها عرض الأفق وأقامت نفسها في هذه الدول مقام الحماية والاحتلال بدلا من الأتراك وكان العرب المسلمون قد قاوموا الأتراك المسلمين لا ليتحرروا بل ليقدموا هذه الأقطار لقمة سائغة للانجليز والفرنسيين

الذين تعاهدا على اقتسامها سرا في الوقت الذي تعهدت إنجلترا للشريف حسين بأقامة دولة عربية بها ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل أنها أعطت لليهود وعدا بأقامة وطن قومي في فلسطين وتبرمت بمعاهدة الشريف حسين - مكماهون ، وأنكرتها في الوقت الذي نفذت فيه معاهدة التقسيم بينها وبين فرنسا (سكس باكو) ونفذ اليهود (وعددها) لهم بالقوة ووصلوا به إلى أبعد حدود الخطر على الشرق الاسلامي كله

بل إن (النبي) عندما دخل فلسطين بجيوش العرب قال (الآن انتهت الحروب الصليبية) أى أن احتلال الغرب لهذا الوطن الاسلامي بعد هزيمة تركيا هو خاتم هذه الحروب الصليبية التي قامت حوالى سنة ٧٠٠ هجرية ولما دلف الأنجلز إلى قبر صلاح الدين قال قائلهم (هانحن قد جئنا يا صلاح الدين !)

بل إن تمزيق إنجلترا للوطن الاسلامي دولا وأما ودويلات لمن أدلة هذه الخصومة هذه سوريا قسمت أربعة أجزاء وهذه فلسطين مكنت إنجلترا فيها لليهود فأوجدت أكبر فتنة بين العرب واليهود ووضعتهم وجها لوجه في خصومة ، هي خصومة الفناء !

وإيقاد نار الخصومة بين المسلمين والهندوس في الهند مما وصلت أثاره أحيانا إلى أن يذبح الهندوس ٣٠ الفا من المسلمين ذبح الأغانم هو من سياسة الخصومة بين الغرب الصليبي والشرق الاسلامي هذا فضلا عن إيقاد إنجلترا وفرنسا نار الخصومة بين أبناء الوطن الواحد كالمصريين والسوادانيين أو السنة والشيعة أو البربر والعرب أو الأكراد والعرب أو العرب والترك

كل هذا كان يرمى فيه الاستعمار الغربي الصليبي عن قوس واحدة بالكيد للوحدة الاسلامية وقتل الروح الاسلامي وتمزيق الوطن الاسلامي الموحد وما زالت تلك المؤامرات تلج على المنار الاسلامي الضخم ، منار الخلافة الاسلامية حتى انهدم هذا المنار وتمزقت أشلاؤه وألحت عليه الفتن والمؤامرات حتى تجزأ وانشغل كل قطر من الأقطار بمأساة الخاصة وهمه الفردي

وما زال الاستعمار الصليبي الغربي يلج على الحقائق الاسلامية التاريخية والقواعد الاسلامية الصحيحة ويستغل لها بعض العلماء وبعض الأدناب حتى وسع شقة الخلاف بين الفرق الاسلامية وجردها من الفهم الصحيح للاسلام وأبقى فيه معنى التواكل والاستسلام ورفع منه معنى العزة والقوة ودفع الظلم والاعتات وما زال يلج بالدراسات الإلحادية والتجريدية على التاريخ الاسلامي والتراث الاسلامي حتى تنكر له الشباب ، وسخر به ، وجنح عنه إلى صور ضالة مغربية من الحضارة الاستعمارية والأدب العربي المكشوف

وما زال ذلك المعنى يتصل بالوحدة القومية نفسها بعد أن مزقت الوحدة الكبرى فعمل على هدمها بالحزبية الطائشة الأتمة القائمة على الهوى والضلال وعلى المغنم المادى والمطمع الحكى وبلغ في ذلك آخر الشوط فجعل الحكم والتسلط هو غاية الغايات وبذلك تكالب الزعماء على الغنم وتنازعوا على المطعم وألقوا وراءهم القضية الوطنية وتجردوا من خلق الاسلام وكرامته ورجوانه باسم السياسة . والسياسة الحزبية مناورات ومؤامرات ولف ودوران ومساومة وتسليم للغاصب رجاء رضاه واذعان له بغيه البقاء في الحكم وهي تربص بالحاكين واتهام لهم بالباطل أو الحق ، وهي خصومة عنيدة حافدة لاتعرف وجه الحق والعدل فلا تعرف الانصاف من النفس ولا تذكر في الغضب الحسنات ، وكذلك جردت الحزبية الحياة الوطنية والاجتماعية من معنى الاسلام ولم تقف

منه موقف الحيدة والاغفال لحسب بل قاومته وخاصمته . عنه من برنامحها وحاربت دعائه . ذلك لأن الاسلام إيمان بالغره ، وقيام على الحق ، وشورى فى الأمر وهو ما تتذكر له الحزبية الجامحة القائمة على الظلم والطغيان والاعتساف والتسلط الفردى والزعامة المقدسة التى لاتخضع لقانون ولا تسمع لرأى ولا تقبل النصح هذه صورة خاطفة لذلك النضال وهذه الخصومة تكشف بوضوح عن أنها كانت خصومة بين الغرب الصليبي والشرق الاسلامى وأن ميدانها الاسلام نفسه والوطن الاسلامى والمسلمين ، ولذلك كله اعتبر أن مسألة الوطن الاسلامى هى مسألة إسلامية بحته وليست مسألة عربية أو شرقية أو وطنية

والمسألة الاسلامية تعنى فى الوقت نفسه هذه الروح الجديدة التى آمنت بالوحدة التى حطمت الأغلال والقيود والتقت ، وأعان على لقائها المؤتمرات الدولية وجمعها موسم الحج وإن كانت هناك مناطق فى هذا الوطن الاسلامى لاتزال هناك حوائل دون الوصول اليها أو الاتصال بها كشاطئ البحر الأبيض الافريقى الاسلامى من حدود مصر الغربية إلى المحيط ، وهو بوضعه الحالى ممنوع ارتياده وإن كان زعمائه وأقطابه قد هاجروا منه إلى مصر وإلى الشرق وكشفوا عن مظالمه وأعمال الطغاة الظالمين فيه ما أوضح الكثير من حقائق الاستعمار التى حاولت فرنسا أن تخفيها عن المسلمين بالحيلولة دون ارتيادهم لهذه الأوطان الحبيبة الغريبة والعالم الاسلامى فى الواقع يتجمع ويتوحد ليقاوم الاستعمار فى قوة وإيمان وهو يزحف زحفا سريعا إلى الوحدة والجامعة لايحقه شئ ما ، وأصبح من المستحيل رده القهقرى أو منع سريان صوته فى كل مكان والواقع أن كل حركة لاتشمل الوطن الاسلامى هى حركة محلية غير ناجحة ، ، وليست هى حركة كاملة وكل حركة جزئية إنما هى حركة زحزحة وانتقال الجيوش من مصر إلى ليبيا أو إلى فلسطين مثلا ليس بحل عملى لأنه إنما تكون على حساب قطر آخر

وقد وضح هذا المعنى تماما فى نفس المسلمين فعرفوا أن كل حركة جزئية لاقيمة لها وأنه الجهاد للحرية يتطلب عملا حاسما سريعا جماعيا ولذلك اتجهوا إلى الوحدة واستجاب لها الوطن العربى أولا بحكم تقارب أقطاره وبحكم تجمعه على وحدة اللغة

وقد سعى العرب إلى الوحدة منذ أكثر من خمسين عاما وظهرت حركتهم فى لونها العملى منذ بدأ الأتراك يعملون للجامعة الطورانية وبرز هذا المعنى رسميا فى حركة الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٧ وقد تحقق هذا سنة ١٩٤٢ أى بعد ربع قرن كامل ولكن البوادر تدل على أن الجامعة الاسلامية سوف لاتستنفذ من الوقت أكثر من عشر سنين إن لم يكن أقل من ذلك بكثير

وكل البوادر الآن والارهاصات تدل على أن الجامعة الاسلامية التى حطمها الاستعمار منذ وطئت أقدامه أرض الشرق وشيكة التحقيق ، وإن آمال التجمع والترابط بين أبناء الوطن الواحد الذى لاتتحده حدود ولا تفصله فواصل ولا تقف فى وجه سهله الممتد الحصيب من المحيط إلى المحيط سدود ولا قيود . قد أذنت بأشراق وأن تلك الأوضاع التى صنعها الاستعمار بنفسه لنفسه لم تحل مطلقا دون اتصال الأرواح وتواصل القلوب وإيمان النفوس بالوحدة الكاملة الشاملة بين أبناء أمة وحدها القرآن وجمعها الاسلام وانتظامها وحدة كاملة

من الأخلاق والعادات والآمال والآلام ، كانت الجامعة العربية مرحلة أولى لإيقاد سراج الجامعة الإسلامية عما قريب

وليس شك في أن الشخصية الإسلامية فيها سمه التشابه والتقارب مما لا يظهر بوضوح في أى مجموعة أخرى من المجموعات الوطنية أو الجنسية وأن ظاهره الوحدة في الفكره الإسلامية والحضارة الإسلامية والدول الإسلامية لاتدع شكا لشاك في أنها وشيكة التحقيق

وإن سماتها الروحية في الإيمان والرجولة والعزة والوحدة الدينية بين معتنقى الإسلام والوحدة الاجتماعية في المستظلمين بظل مجتمعه وحضارته ، هذه الحضارة التي أخذت من كل الحضارات بطرف فحضرته وحولتها إلى صميمها وأحالتها إلى لونها وتغلبت عليها بروحها الجبار القوي

كل هذا يؤكد أن المسألة الإسلامية هي مسألة اليوم ومسألة الساعة وإنها أخطر ما يعترض الدوائر السياسية في الشرق والغرب ، بل إن بعض العليمين يتكهن بأن ميدان الحرب العالمية الثالثة التي ستندشب قريباً سيكون في الشرق الإسلامي وأن (البترول) اليوم يجعل من هذا الشرق مصدراً خطيراً تتدافع اليه الدول المستعمرة بالمنالك وتحاول أن تستغل أصحابه وتسيطر عليهم أو تتحايل على كنزهم الثمين عماد المصانع وعتاد الحروب ويزيد هذه المسألة قوة وجلالا وخطراً قيام دولتين إسلاميتين كبيرين في الشرق الأقصى والأوسط كما يسميه المعاندون الذين لا يطبقون كلمة (الشرق الإسلامي)

أما أولاها فهي اندونيسيا وبها ٧٠ مليوناً من المسلمين أي في ضخامة الجامعة العربية كلها بعد ان تضم اليها بلاد الشاطئ الأفريقي المسلم وهي دولة فتية مجاهدة مؤمنة لن ترى لها محيصاً من ان ترتبط بالشرق الإسلامي وتتعاون معه وتتناضل في خط دفاعه

والثانية هي دولة الباكستان الجديدة التي تضم في الحاضر ٧٠ مليوناً وتضم في المستقبل مائة مليوناً من مسلمي الهند المكافحين المناضلين الذين اعلنوا في وضوح وجللاء انهم سيقومون دولتهم على اساس التشريع الإسلامي الكامل

فهاتان القوتان الإسلاميتان لن يكونا الامداد للقوة العربية الثالثة ولضخامة عددهما سيتغلب اللون الإسلامي على اللون العربي خاصة وان ايران وافغانستان وتركيا بسبيل إلى الترابط في هذا الحائط القوي لازى القوى ولن تنفارض الجامعة العربية مع الجامعة الإسلامية ابداً ، وما العرب في الواقع إلا امة واحدة شأنها شأن الباكستان مثلاً لولا فواصل خفيفة لاقية لها في اوضاع الحكم ونظمه

ومها قيل من ان الجامعة العربية صنعها الأنجليز ومها كان نصيب ذلك من الصحة فان الجامعة الآن هي جامعتنا روحاً وقلباً وقالبا ولا بأس من أن يسعى الإنجليز لتسكينها لأن لهم مصلحة في تضامن الشرق العربي في وجه الشيوعية ولا مانع مطلقاً من أن تسعى إنجلترا أيضاً لأن تقيم جهة إسلامية واسعة النطاق حدودها الهند وإيران وتركيا ومصر لتكون حصناً قوياً بدفع امواج الشيوعه المسكتسحة ذلك لأنه إن كانت إنجلترا تسعى إلى وحدة المسلمين فانما ذلك مآل المسلمين وأملهم طال الزمان أم قصر . وإن كانت تحاول أن تصد بهم تيار الشيوعية فانما هم مكلفون من قبل اسلامهم ومن قبل وطنهم بكفاج هذه الجرثومة الخبيثة كما هم مكلفون بمكافحة

جرثومة أشد خطراً وفتكها الصهيونية رضيت بذلك إنجلترا وأمريكا أم غضبتا . . . فنحن في طريقنا سائرون ولا تستطيع إنجلترا أو غيرها أن ترد هذا النهر القوى المتدفق المنطلق إلى مصبه ولكنها تحاول أن تفيد منه ولن تستطيع أن تفيد منه إلا إذا آمنت به إيمان التقدير والمساواة عملت معه على أساس الند وعمل معها محرراً من قيودها السياسية والاجتماعية والعسكرية والاقتصادية آخذاً طريقه التي يجمع فيه بين كيانه الذاتي القوى وما يراه صالحاً من الحضارة الغربية

وقد يقول قائل أن الجامعة الإسلامية شيء لا يزال بعيداً أو أن التفكير فيه سابق لأوانه ولكن النظر النفاحص الدقيق يثبت بأن المسألة الإسلامية أصبحت مسألة لها جلالها وخطرها وان قيام ١٧٠ مليون مسلماً في الشرق الإسلامي من أقصى جناحه الأيمن لهُ من أجل الأحداث وأخطرها بعد الحرب الكبرى الثانية، وهو من أكبر العوامل على بلوغ المسألة الإسلامية أوج قوتها وجدها وبثحرير الهند تصبح هذه الممالك العربية التي كانت دائماً حجة للاستعمار بأنها طريق الهند ومواصلاته، تصبح غير ذات موضوع ويسقط الدليل القسائم على أهميتها لغرض خاص وإن كان الغرض في حد ذاته لا يثبت للحق ولا للقوة ولا للإيمان بحقوق الأوطان

الاستعمار

اتخذ الاستعمار في نفاذة إلى الشرق أساليب كثيرة وطرائق عدة
استعمار محجب ثم استعمار سافر
استعمار يلبس ثوب التجارة ويحتل الموانئ والمواقع وينال الامتيازات
استعمار اقتصادي فحري فسياسي فاجتماعي فثقافي
هجوم على الأوطان والأرض، وعلى الأديان والروحية وعلى التشريعات والمجتمعات والتقاليد
حكم من وراء ستار واصطناع للاذئاب والعيون والأرصاء والاعراء بالمرأة والمال ثم التهديد بالسجن والنفي والارهاب وتمزيق الوحدة وأثاره الحزبية والخصومات
ويحارب الاستعمار الاسلام لأنه يدعو اتباعه للاعتصام بالله وبالعزة وبالكرامة وينبذ كل ولاية لا تتفق مع تعاليمه

ولذلك فقد الشرق الاسلامي في ابان ضعفه : روح الاسلام الحق واستبقى الشعائر الظاهرية
فقد الامراء رقابة العلماء واستكان العلماء لنضار الامراء البراق فشملت روح الاستسلام والضعف الأمة كلها والأمة على دين علمائها. وتركت الاتجاهات العملية واكتفى الناس بالكلام، وانتشرت المناقشات البيزنطية والمجادلات الضالة والمساجلات الظالمية التي لا تنقيد بأدب أو بدين. وفقدت روح التصوف مقوماتها وانعزل المسلمون عن العالم وجدوا عن التجديد في الوقت الذي زحف فيه الاستعمار يثوب التاجر والجاوسوس والرحالة والعالم

واستعمل (الغرب) المسيحية كوسيلة من وسائل الغلب والاستعمار والتمزيق للوحدة القائمة وقضاء المآرب السياسية

وليس شك في أن أوربا هي التي أثارَت الفتنة سنة ١٨٦٠ في سوريا ولبنان باسم المذهبية المعروفة ، هذه الفتنة التي اصطدم فيها الدروز المسلمون بالمبنايين النصارى والتي انتهت بتدخل فرنسا الفعلى في لبنان وسجل التاريخ كله المارون (امنا فرنسا)

وادخل الغرب — لنشر لا للخير وللتمييز لا للوحدة — فكرة الوطنية القومية أو الانتساب إلى جنس معين أو مكان معين في الوقت الذي يسود الشرق كله جماع من الروابط الموحدة سواء من الناحية الروحية أو الدينية أو الاجتماعية مما لا يتوفر لامة أخرى ، والاسلام في الواقع رابطة ووطن وجامعة وهكذا تمكن السلطان العسكرى والاحتلال السياسى والغزو الاقتصادى والاستعمار الاجتماعى بزحف رؤوس الأموال والمصارف للعمل ، والجيش لحمايتها ، والحضارة والمراقص والخور والعادات الآثمة والنظرات الالحادية والاضاع الخلية الماجنة التي طوت في اعماقها احتقار الدين والوطن والانسلاخ من العقائد والتقاليد الشرقية الاسلامية والسخرية بالعروبة والاسلام وتاريخه واجاده ، واذاعه الشك والاحاد والاباحه بواسطة المدارس والارسلالات والمستشفيات ووصل أثر ذلك إلى النظم التشريعية والسياسية والثقافية وتغيير قواعد الحكم والقضاء والتعليم فاستغربت المدرسة والمحكمة والدولة وصور الغاصب الاسلام للناس تصويرا قاصرا في حدود العقائد وضروب العبارات مع اطلاق العنان للخمر والمسرح والمرقص والكتاب الاثم والقصة الخلية والسينما الضارة

وكان البترول والرأسمالية والخامات والاسواق من أهم ما ثبت أقدام الاستعمار في الشرق وممكن له وأصبح بهذه العناصر موضع النزاع والصراع بين روسيا وانجلترا وامريكا ، ولم يقف الأمر عند خطر الاستعمار والرأسمالية لحسب ، بل زحفت على الشرق موجات جديدة آثمة قتاله كاشيوعية والصهيونية وكلاهما خطر جبار لا بد من دفعه والاجتماع على حربه ونضاله

وبدأ الاستعمار أول امره تحت ستار التجارة وكانت فرنسا تناوى انجلترا على مناطق النفوذ في الشرق حتى انها اختصمتا عند فتح نابليون لمصر ثم في موقعة فاشودة ولكنها اتفقتا على محمد على واتفقتا سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى المعروف ، الذي كان أول لبنة في صرح الاستعمار وعرف بها أن الغرب كله يصدر عن رغبة في المطامع والاستغلال حتى يصل ذلك إلى أن تتفق دولتان على أن تطلق احدهما يدا أخرى في مصر مقابل أن تطلق الاخرى يد الثانية في المغرب . ومنذ ذلك اليوم اشتد الاستعمار على مصر والمغرب وازداد ضغطه واشتدت إثماته وضرباته

وهكذا بدا الاستعمار بالتجارة ثم بالتبشير ثم بالاحتلال السافر والمغالطات الواضحة والوعود الخادعة وتسمى هذا الاستعمار مرة باسم حماية العروش أو المواصلات الامبراطورية أو باسم حماية المصالح أو باسم الدفاع المشترك ١

وكان الاستعمار الفرنسى قاسيا آثما لا يعترف بحقوق الشعوب ولا يرفعى كرامتها في الوقت الذي كانت انجلترا تعمل على اساس التسف والمغالطة والاختفاء وراء الظلمة الأدناب من أصحاب الاوطان الذين كانوا مغلَّب قط لها تضرب بأيديهم ويقمعون الشعب بسلطانها

خصومة الغرب للاسلام

لست اعتقد ان التاريخ الحديث كله - وهو تاريخ النضال بين الشرق والغرب - يتسم بميسم واضح صريح .
إلا هذه الخصومة الطاغية التي شنها الغرب على الاسلام بكل صورة وعلى كل لون وتحت كل عنوان ، وهي لا تخرج
عن انها رغبة عنيفة في الانتقام ، وشوق عجيب إلى الدماء ، وطمع متصل في التثقي والأذلال ، وتطلع إلى
استعباد هؤلاء الذين يعيشون بين الهادي والاطلسي ويتسمون باسم المسلمين
ولقد حاولت كثيرا ان انظر الى الأمر من وجوه أخرى ، وان أدفع عن طريق تفكيرى هذا الرأى فوجدت
الأدلة تنساق إلى سوقا فتدعم هذا الرأى تدعيا وترقى به إلى الحقيقة الصادقة التي لا ينالها الشك والتكذيب
رايت كل ملحظ في تاريخ ذلك الصراع بين المسلمين والغرب يدل على ان اوربا في الماضى وامريكا
واوربا في الحاضر كانتا - ولا زالتا - تطمعان في ان تضعا يدهما على الشرق كأنه التركة التي لا ملاك لها ،
محاولة لإطفاء نور رسالته ودمر كرامة اهله

ظهر معنى هذه الخصومة بعد أن إستيقظ الغرب واستفاق وفتح عينيه على تراث الشرق الكريم الذى
تسرب إلى أواسط أوربا عن طريق إحتكاك الغربيين بالمسلمين فى الأندلس واتصالهم بهم فى تركيا والبلقان
وكذلك عن طريق جنوب إيطاليا .

وتفتحت عيون الغربيين - فى دهش بالغ - على مدى خطر هذه الرسالة وجلال هذا الاسلام الذى أقام
دوله وكون أمة ، هذه الأمة التى زحفت فى أقل من قرن إلى العالم فافتتحت باسم الله وحكمته برسالة القرآن
وشرعة الرحمن وأنارته بنور العدالة والاخوة والمساواة . وامتدت فى زحفها إلى أقاصى المحيط شرقا على
حدود الصين وإلى نهر اللوار غربا فى قلب فرنسا ، ولولا أن الخليفة فى دمشق طلب إلى موسى بن نصير أن
يعود لكان يسيرا عليه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية فى وقت قليل كما فعل المسلمون
من قبل بالبحر الأحمر .

ورأى الغربيون كيف أن المسلمون يضعون أيديهم على منافذ البحار ومفاتيحها فى الشرق والغرب فقد
كان فى أيديهم الدردنيل ومصر وبوغاز جبل طارق وباب المندب .
وعرف الغربيون أن السر فى هذا الانتقال الخطير هو هذه التعاليم الرائعة الباهرة ، وهذا الفيض من
العلم والهدى ، وهذا الخلق الكريم الذى رسمه القرآن ونفذه محمد رسول الله وصحبه ومن جاء بعده فدانت
لهم الدنيا وأسلمت إلى أيديهم قيادها فحكموها خير حكم وسعدت بهم وفى ظلمهم فاءت إلى السكرامة
والرجولة والعزة والسداد .

ورأى الغرب كيف أغار المسلمون على أطرافه فانتقصوا أطرافه فى فرنسا والأندلس عندما اقتحمها طارق
وموسى وفى تركيا والبلقان عند ما وصل محمد الفاتح إلى أسوار فينا ، وفى جنوب إيطاليا وجزائر الدوديكانيز .
شهد الغرب روح المسلمين القوية المؤمنة التى ردت الغزوات الصليبية مهزومة مدحورة فاستفاق على نزعة
ظالمة طاغية ، هى أن يزحف من جديد على هذه الدول الاسلامية فيرى فيها رأيا وبدأ زحفه هيابا وجلا خائفا ،
وسار على شواطئ البحار وسواحلها متوجسا ، باسم التجارة والسلع فلما اصطدم بالمسلمين مرة ومرة

تكشف له الأمر عن ضعف سببته تلك الغفلة التي رانت على المسلمين فأصابتهم سنة من النوم وجعلت بأسهم بينهم، وجعلتهم صرعى للناقشات البيزنطية، والجدل والكلام .

أنهم غفلوا عمن حولهم وعمادهم ، أما الخلافة فقد استنامت إلى الضعف والهوان ومن ثم بدأت أوروبا تؤجج نيران الفتنة وتخلق أسباب الاتصال وتوسد لنفسها عوامل البقاء فخرضت العناصر باسم الحرية وحملتها على التمرد باسم الجنسية وبدأت أوروبا الطامعة الراغبة إلى استعمار المسلمين واحتلال وطنهم ترى في هذا الشرق الغافل ميدانا خصيبا للسيطرة والاستيلاء ورأت في المسلمين ضعفا وتخاذلا وانصرافا عن التراث الخالد والمجد الجبار، ولمست منهم ضعفا واضحا عن إداء الرسالة وتخلفا لظاهر آ عن أحكام الله، ورأت أن هذا هو مقتلهم، فليس المسلمين قوة تظاهرهم أكبر من عزة الإيمان برسالتهم والتمسك بكتابتهم وتنفيذ تشريعهم، ومن ثم بدأت تؤلب العناصر المسيحية وغير المسيحية، وبدأت تتدخل بواسطة وكلائها وسفرائها، وبدأت تزحف بتجارها إلى الشواطئ والموانئ وتنال الامتيازات، وأخذت تعد العدة لعمل منظم ثابت، فأنشأت المدارس والمستشفيات والملاجئ تجعلها حصونا تظاهرها الرفق والخير وباطنها الشر والإثم والغواية .

وقدفت الشرق بالفتنة الغربية الممثلة في المرأة والخمر، وأعدت لأهل المصارف والشركات لتقرضهم المال وترهن الأملاك، لتنفق هذه الأموال في أسواق الغايات، ومصارف الإثم والشهوات، وهيات هذا الميدان بالوان صارخه، وأضواء كاشفة، وزخارف وأصباغ وعطور وبخور، نافست ألف ليلة وتساطت بذلك على الباب الشباب فصرفته عن أسرته وأهله، وكرامته ورجولته، وعفافه وغيرته، وعرضه وإيمانه .

فلما تمكنت منه تماما تهدمت الأسرة وتمزق البيت وتحطم الجسم وضاع المال وأصبح الشباب القوى الفتى، الذى يتفصد حماسة ويتقد غيرة، رخواً ضعيفاً، مخنثاً مريضاً، مهالكا ذليلاً، لارجولة في قلبه ولا قوة في جسده ولا إيمان في روحه ولا علم في عقله، إنما هو انسان تافه لا يستحق اسم الانسان .

وفذت أوروبا الشرق الإسلامى بالشك الغربى ومذاهب الفلاسفة المغرقين في الاتحاد والمروق، والسخرية بالماضى والاستهتار بالتاريخ، والناافرين من الدين والرسل والكتب المنزلة، المتطلعين إلى حكم العقل وحده، وهو قاصروا إلى مبادئ الحس ومنطق الطبيعة وحساب الرياضيات وهى فجوة ففتنوا الشباب عن إيمانه بربه فشك في الخالق ونفروه من الدين فأنتكر الرسل وهزأوا ببرائته فاستخف بالقرآن، ومضى ساخرأ بتاريخ الإسلام وتاريخ الوطن لا يراهما إلا نوعاً من الأساطير أولونا من الخيال المصنوع .

وتسلطت أوروبا على العلماء فأطمعتهم في الذهب الوهاج والمناصب العليا، والمركب الذلول، والملبس الأنيق فضاعت من نفوسهم معالم الدين، وماتت على أفواههم كلمة الحق، ومحيت من عقولهم أصول الإسلام .

ومن ثم ساروا في ركب الغاصبين يأمرؤن الناس بطاعة أولى الأمر، ويدلون للحاكم المستعمر ويسرون وراء كل دولة وينعقون وراء كل ظالم، وافهموا الناس أن الإسلام صلاة وصيام، ومساجد ومساج، ودروشة واعتكاف، فانصرف الناس عن حقوقهم أذلة، وعن أوطانهم ضعافا، ورضوا بالحياة الهينية اللينة، ودخل إلى انفسهم ان هذا هو الاسلام فسلبوا بذلك .

ولقد عرف نابليون قدر هؤلاء الناس فاستعان بهم وقال عنهم أنهم ضعاف مسالمون لا يركبون الخيل . وهكذا زحف الغرب إلى بلاد المسلمين زحف القارذ المنتقم للدد والعداء ، للإسلام والمسلمين وصال خلال هذه السنين صولات طويلة وجولات قوية ، يرمى إلى استعباد المسلمين وتحطيم تعاليم الاسلام ففاز بالأولى وعجز عن الثانية فإن تعاليم الاسلام ظلت خالدة باقية ، وقد حفظت قوة كاملة لم تزعزعا خطوب المسلمين ولا أحداث العالم ، وإن غشيت على قلوب الناس غاشية ففسوها وأجهلوها ، أو بعدوها ومن ثم ألح الغرب على منار الخلافة ، وهو قاعدة الوحدة . فأتى عليه ، ألح عليه بالدسائس والمكائد ، والأزمات والمشاكل وإثارة العناصر والثورات ، وخلق المؤامرات والفتن ، فهوت الخلافة تحت ضربات هذه المعاول

النزعة القومية والوطنية الضيقة

وقذف الغرب البلاد الاسلامية بنزعة القومية والجنسية فتنبه لها الناس وسرت في النفوس مسرى الكهرياء فأوسعت شقة الخصومة بين العرب والترك وألح الترك على العرب بالفكرة الطورانية يريدون أن يعملوا على تترك العناصر ، وتنبه العرب إلى ما يراد بهم فبدأوا يفكرون في الوحدة العربية وبيت إنجلترا للوحدة العربية مكيدة غادية فأوعزت إلى الشريف حسين تمنيته بالامبراطورية فتمكنت في نفسه الفكرة وما كان الانجليز لها صانعين وإنما كانوا مستجيبين يريدون أن يحولوها إلى مصلحتهم . فلما جاءت الحرب الكبرى انفقوا معه اتفاقا رسميا مكتوبا تداولته خطابات متصلة استمرت وقتاً طويلاً حتى حددت ما يريد فاطمان لها وأعلن الثورة على الترك وقطع علاقته بهم .

واستيقظت نزعة القومية في مصر بعد الاحتلال الانجليزي وعذتها إنجلترا التي كانت تريد أن تفصل مصر عن تركيا لتكون لقمة سائغة لها وحدها ، فظهرت دعوى (المصرية) وكان من دعائها أنصار الاستعمار وأصدقاء الانجليز وأبناء حزب الأمة . ولم يرد هؤلاء بها لمصر خيراً بقدر ما أرادوا بها خصومة لتركيا وتمزيقاً للجامعة الاسلامية الممثلة في منار الخلافة العثمانية ، وقد كانت النزعة العربية والمصرية في مصر والطورانية في تركيا - وقد سار في تيارها من بعد مصطفى كمال - وسائل عملية لقتل كلمة الاسلام وتمزيق شمل الوحدة وهدم منار الخلافة وتفريق هذا الجميع الملتف حول اسم واحد .

وقد احتدت هذه المعاني القومية الجديدة ، وكانت ريحها تهب من أوروبا باسم الجنس وباسم الوطنية ثم أتبعها الانجليز بأعداد منظم حتى نادى المصريون بالعودة إلى الفرعونية وقال غيرهم بالاشورية والبابلية . وقالت تركيا بإيجاد جنكيزخان وتطرف الأتراك في هذا المعنى حتى ردوا كل عطاء التاريخ إلى أصل تركي واعتبروا النبي الأول سيدنا آدم من أصل تركي ومن ثم هيأت هذه النزعة الفرصة للانجليز لأن يمزقوا الدولة الموحدة وكان أظهر صورها وأشدّها عنفاً حركة مصطفى كمال حين قلب تركيا من دولة إسلامية إلى دولة لادينية وألغى السلطنة والخلافة وفرض لباس القبعة وأخرج المرأة بالقوة إلى الشارع والمرقص وألغى اللغة العربية وترجم القرآن وكتب من الشمال وبلغ به التطرف والاغراب في التغريب أن احتفل بزواج أول مسيحي لمسلية . . .

وتأمر الانجليز على العرب فوعدوهم ومنوهم بدوله وخلافه فلما خاضوا الأتراك وانضموا إليهم وثاروا ثورتهم وفاز الحلفاء بهذا الجناح العربي نكسوا بالعرب ، ومزقوا الوطن العربي ووقعوا فيما بينهم (معاهدة

كسكس باكو) التي أباحت فلسطين وشرق الأردن لـانجلترا وسوريا ولبنان لفرنسا ، ولم تكن هذه المؤامرة الاستعمارية هي الأولى وإنما سبقتها مؤامرات ، كانت المؤامرة الأولى يوم تجمعت الدول الغربية المتخاصمة جميعها في معاهدة واحدة ، لتقف ضد مصر أيام محمد علي وفي هذا مافيه من معنى الخصومة للوحدة في الشرق وللإسلام ولو اختلفت المطامع .

ويظهر هذه المعنى مرة أخرى عندما كانت فرنسا تناصر المصريين على انجلترا وتدعى أنها حامية الحريات وتهاجم انجلترا في (فاشودة) لتخرجها من مصر ، ثم تنجلي هذه المناورة عن خدعة المطامع والتقسيم ، ويتبخر هذا المعنى تماما بعد أن عقدت انجلترا مع فرنسا معاهدة الوفاق ١٩٠٤ هذه المعاهدة التي أطلقت انجلترا لفرنسا يدها في شمال أفريقيا مقابل أن تطلق انجلترا يدها في مصر .

وهكذا خدع العرب بالانجليز وحاربوا معهم وقتل المسلمون العرب إخوتهم من المسلمين الأتراك في حرب ضروس حتى أجلّوهم عن الحجاز وفلسطين وسوريا ودخلها الانجليز مع العرب ولم يدروا أنهم إما كانوا يقتحونها بدماء المسلمين ويستخلصونها من أيدي الأتراك ليسكون لقمة سائغة لانجلترا وفرنسا يقتسمانها بينهما . وأن العرب قد تخلصوا من الأتراك المسلمين ليسلوا أنفسهم للانجليز والفرنسيين وأن هؤلاء قد حطموا منار الخلافة وأشعلوا نار العصبية والجنسية والقومية ليصرفوا العرب عن الاسلام إلى القوميات ، وليرزقوهم دولا وأما ، وأقل من الدول والأمم

وهكذا سار الانجليز على مبدئهم الخطير ، مزق تسد ، وقسموا هذا الوطن الواحد إلى أوطان منفصلة وضعوا بينها الحدود والحواحز

وهم الذين وقفوا - من قبل - في وجه الاسلام في البلقان فردوا نفوذهم إلى آسيا الصغرى وأجلّوا سلطانه عن أوروبا كما أجلّوا من قبل سلطانه من الأندلس .

وفتحت فلسطين بجيوش العرب لحساب الدولة العربية الموعودة ، فإذا (باللبني) يقف على رباها ويقول في حقد بالغ يملأ نفسه تلك الكلمة الصليبية ١ فيسجل على أمتة الظالمة هذه الخصومة الظالمة ، خصومة الطغاة ، التي كانت تعمل على الانتقام حتى وأنها الحظ بالتغريب بالمسلمين والحداع للعرب والضعف للشرق .

وعود وتصريحات

ورأت انجلترا أن فلسطين مرقع استراتيجي هام ، وأنه لو بقي منضمًا إلى سوريا لنال استقلاله فسلطت عليه اليهود واباحتهم لهم وصرح بلفور تصريحه المشؤم في ٢ - ١١ - ١٩١٧ بالوعد بوطن قومي لليهود ، هذا الوطن القومي الذي وعدت به انجلترا إنما كان باستثارة معاني الاشفاق والعطف للمشردين الذين لا مأوى لهم فإذا بهم بعد قليل يتمردون ويطفون ويعتبرون انفسهم اصحاب البلاد ويطالبون في جرة عجيبة بقيام دولة لهم ، ويصل الأمر بدعواهم الباطلة ان تسمع لهم هيئة الأمم المتحدة وتعتمد وكلائهم ، دون العرب ، ويقدم العرب الاحتجاجات الصارخات ليكونوا على قدم المساواة مع اليهود امام اللجان ، وليعترف باللجنة العربية العليا ، واحسرتاه
وكم في شهر نوفمبر من احداث ٢ من احداثه تحول الوطنية المصرية القومية الثائرة المخاضة للانجليز ، المعلنة لعدائهم إلى سياسة المناورة والصداقة والمساومة بالحقوق وقبول التجزئة ،

فقد تم في هذا الشهر ، في ١٢ نوفمبر مقابلة من انتدبوا انفسهم للاتصال بالمندوب الانجليزى ، وقدموا له العروض السخية في القضية المصرية وحددوا موقفهم بأنهم يطلبون مساعدة إنجلترا حامية الحريات ، ولا يتحدثون في مصر إلا معها ولا يتحدثون في أوروبا إلا معها وصرح كبيرهم بأنه يضع تحت امرة إنجلترا افناء السويس كضمانه وتحالفها على اعدائها وتقدم لها فلذات الأكباد ليجاربوا معها . . . وباللخزى والعار .

وخدعة اخرى من خدع سنة ١٩١٨ هي خدعة تصريح (ولسن) وحق تقرير المصير ، هذه الدعاية الكاذبة المضللة التي خدعت الشرقيين والمصريين والعرب والمسلمين وظنوا ان وراء هذه الألفاظ البراقة حقاً ، فإذا بالمصريين يبرقون إلى (ولسن) ويطالبون بحق مصر في تقرير مصيرها فتجيب امريكا بأن تصريح ولسن لا ينطبق على مصر وانها تقر حماية بريطانيا وسلطانها عليها . وهكذا تنهزم الأقوال المغرية امام التجارب المؤلمة . . خاصة إذا كان الأمر فيما يتعلق بالدول المسلمة امام الدول الغربية المتجمعة على الطغيان والسيادة .

ولعل هذا المعنى ، معنى استعباد المسلمين واحتلال بلادهم يبدوا واضحاً جداً إذا نظرت الآن إلى خريطة العالم فوجدت اللون الأحمر من نصيب كل مأذنه ومسجد . .

وتظهر خدعة اخرى في هذه الحرب مشابهة لخدعة ولسن هي خدعة ميثاق الأطلنطي الذي عقده طاغية ان من أئمة الاستعمار هما روزفلت وتشرشل في عرض المحيط وقررا فيه حق الشعوب في الحرية والاستقلال ووطنان له المصريون والعرب والمسلمين ونسوا انهم خدعوا في المرة الأولى وبمثل هذا التصريح ، وإن هذا التصريح ماهو الا رجاء الغريق في الانتقاذ ، فإذا أنقذناه لوى وجهه في كبرياء ونسى الفضل وقال إنما هو لأم عبيد . ومن التصريحات الخطيرة التي أصابت المسلمين بالطغيان الظهير البربرى (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) الذي أصدرته فرنسا في مراكش لتجعله تكأة لها لتنصر المسلمين ولتفصل البربر ولتمزق الوحدة ولتطعن الاسلام والتشريع والعربية بخنجر مصقول

وهي مازال تعمل إلى اليوم لإضافة هذه الأقطار إلى الولايات الفرنسية وتعتبرها فرنسا الجنوبية وتحول بينها وبين العرب وتهدم دينها وتمزق تشريعها

ولقد لقي المسلمون من هذا الزحف الطاغى أثارا سودا فقد وصلت وحشية أوروبا إلى حد أثار المذابح والثورات الدامية في مصر والعراق وسوريا وفلسطين والمغرب والهند وأندونيسيا قاسى منها المسلمون العزل أهوالا من رصاص الانجليز والفرنسيين ، ومات منهم عدد ضخم ، صرعى في ميدان الكفاح في سبيل الحرية وسلطت إنجلترا في البلاد التي احتلتها - أبناء البلاد بعضهم على بعض وأثارت بينهم الفتن الطائفية والمذهبية التي استفحلت في كثير من هذه الأقطار وكان لها أبعاد الأثر في تمزيق الوحدة وإيقاد الخصومة والتسكين للعدو الدخيل

فهي قد قذفت عرب فلسطين باليهود وأمدتهم بالسلاح والذخيرة وأعانتهم على العرب بقوة البأس وسلطان القانون فتزاحمت شرادهم الأئمة على أرض العرب وجردتهم من أرضهم وأقامت عليها المصانع والحصون

وأوقدت في محيطها عواصف إرهابية قامت على أثرها الثورات بين العرب من ناحية واليهود والانجليز من ناحية أخرى ، وكان العرب فيها هم أصحاب الغرم وهم الضحية وأعانى في الهند الهندوس بالسلطان على المسلمين ، أصحاب الأوطان وحكام البلاد ، وسلطتهم على المسلمين فأصابوا منهم ، وهددوهم في أوطانهم وذبحوا منهم منذ وقت قريب في معركة واحدة حوالى الثلاثين ألفا وتسلطت فرنسا على المسلمين في سوريا مرتين أولاها سنة ١٩٢٠ في معركة ميسلون والثانية في ثورة الشام على الاستعمار الفرنسى البغيض سنة ١٩٢٥ وخسرت سوريا في كلتاها شبابا كريما ورجالا أبطالاً ولم تكن التضحية الأولى ، بل كانت دموع ألماني لما تجف بعد على شهداء سنة ١٩١٥ الذين علقهم على أعواد المشانق جمال السفاح .

وسلطت فرنسا الآثمة حكماها على المسلمين في المغرب فأذافوا المسلمين ألوانا من الظلم والاعنات والنكال وقتلواهم أكثر من مرة وذبحوا منهم في معركة واحدة قرية التاريخ أكثر من ٤٠ ألفا وكذلك فعلت أوروبا بالمسلمين في البوسنة والهرسك وفي البانيا فكم أقيمت المذابح ليصلاها المسلمون ، والمسلمون وحدهم هم شهداء مذابح الغرب .

أما في مصر فإن حوادث دنشواى والشوبك والعزيرية والتل الكبير وضرب الاسكندرية بمدافع الأسطول واثام الانجليز خلال ذلك التاريخ وقتلهم الشباب بالرصاص سنة ١٩١٩ ، سنة ١٩٣٥ ، سنة ١٩٤٦ كل هذا كان تحديا ظاهرا لاشك فيه وصوراً من صور القصاص للخصومة الظالمة التى ذهب الغرب فى الانتقام لها إلى أبعد الحدود .

ولقد حاربت انجلترا الظالمة دولة أندونيسيا المسلمة دون سبب إلا لتقف حائلا دون قيام دولة إسلامية تعدادها ٧٠ مليوناً فى الشرق الإسلامى فى أقصى جناحه الأيمن فظاهرت هولندا على المسلمين وأخذت تقتص منهم وتسكيد لهم .

واستعانت انجلترا لخصومتها هذه فى فلسطين ومصر والعراق والهند بأساليب عجبية :

استعانت بضعاف الوطنية من أبناء البلاد ، فاستعانت فى مصر ببيطرس غالى ومصطفى فهمى وفتحى زغلول فى توقيع اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة والانتقام الرهيب من المصريين المظلومين فى حادث دنشواى واستعانت بالحزبية المصرية وبالزعامة الوطنية على قتل الشعور الوطنى وتحويله من الجهاد والنضال إلى المساومة والاستخدام واستعانت بزعماء ١٣ نوفمبر وموقعى معاهدة ٣٦ وحكام ٤ فبراير على سحق الكرامة المصرية حتى وصلت آثار هذا الإستسلام إلى أن فرض على مصر تقديم وسائل الترفية عن الجنود الانجليز خلال الحرب الأخيرة من خمر ونساء ، نساء هن من المسلمات سلبت أعراضهن للجيش الانجليزية باسم معاونه الحلفاء وتنفيذ المعاهدات واصطنعت انجلترا لها فى كل قطر فريق من الخونة يقفون فى وجه العاملين أو يحولون التيار القوى الصادق إلى التخدير والضعف والركود ، ويصطنعون لذلك كل وسيلة من وسائل الأعزاء بالمال والمرأة والنصب أو وسائل الانتقام كالسجن والنفي والتشريد .

واستعانوا إلى ذلك أيضا بمن هو أقسى من ذلك وأشد

استعانوا برجال من الانجليز ، اسموهم أصدقاء العرب ليضللوا بهم على العرب ، وليكونوا عيوناً لهم وإرصاداً ، أمثال (بلنت) في مصر و (لورنس) في سوريا و (فيلي) في الحجاز وغير هؤلاء . . . هؤلاء الذين يؤججون الرأى العام ويشيرون الفتنة كما فعل بلنت مع عرابي حين حرصه على الخديو ، وأمكن للانجليز من النسلط على البلاد ، وكما فعل (لورنس) حين غرر بفيصل والشريف والعرب حتى قدموا الضحايا في فتح سوريا وفلسطين ثم سلموها لقمة سائغة للانجليز والفرنسيين - والانجليز - كما قالت - يعرفون جيداً ، إن الإسلام هو مصدر الخطر على سلطانتهم في الشرق فهم قد حاولوا ويحاولون دائماً أضعاف صوته بتجريده من معناه وتسليط أضواء الحضارة ومغرياتها حتى تصرف الناس عنه ، وبأثارة روح القومية حتى ينشغل كل قطر بنفسه فلا يتلاقى المسلمون في معنى أو في وحده ، وبتأجيج الخصومات بين الأقطار حتى لا تتصل وكان ذلك استجابة عملية لقول غلادستون الصريح في مجلس اللوردات الانجليزى في أواخر القرن الماضى حين أمسك بيده (القرآن الكريم)

وقال (مادام هذا الكتاب باقياً في الأرض فلا طمع لنا في إخضاع المسلمين) وقد صدق ، وستثبت الأيام أن ماذهب إليه هو الحق ، وأن المسلمون الآن قد عادوا إلى القرآن بأقوى ما عرف غلادستون في ١٨٧٠ فلا طمع لهم في إخضاع المسلمين . إن هذا القرآن ، هو أستاذ العزة والرجولة والكرامة التى لا تقبل الذل ولا الهوان ولا الضعف ثم هو أستاذ التشريع وتنظيم المجتمع وقيادة الأمة إلى الهدف الموحد وإلى العدل الكامل ، وقد اعترف الغرب في مؤتمر لاهاى سنة ١٩٣٨ ووشنطون سنة ١٩٤٥ بأن الشريعة الإسلامية شريعة كاملة مستقلة .

وها نحن والحمد لله نرى خطوات الوحدة تسير واسعة ثابتة فن مرحلة القومية إلى دور الجامعة العربية وهانحن اليوم على أبواب الجامعة الإسلامية تظهر اليوم في هتاف الهند لقضية فلسطين وهتاف أندونيسيا لقضية المغرب وهتاف تركيا لقضية العرب واستجابته أقصى الجناح الأيمن لأقصى الجناح الأيسر في حب وأخاء بل وفي تضحية وفداء واستعداد للذل والدماء .

وهكذا نزحف إلى الغاية في قوة تبدد أحلام انجلترا وأمريكا في الرأسمالية ، وأحلام اليهود في الصهيونية ومطامح روسيا في الشيوعية وتقضى على أطماعها على اكتساح الشرق ، نعم أن هذا الوعي الجديد سيضع حداً يحول دون إنفاذ الغرب الصليبي الغادر لأغراضه الخثية وسوف تتحطم في القريب هذه النظم على رؤوس أصحابها وسيكون للغرب مع المسلمين يوم ، يوم أحمر ملتهب ، هو يوم القرآن ، يوم يحقق المسلمون رسالة الحق التى تقى إلى ظلها الأمم بمختلف طبقاتها وأديانها راضية سعيدة مطمئنة بالعدالة والأخاء ، بل لاأبالغ إذا قلت أنها ستكون الترياق الشهى للإنسانية المعذبة ، والعلاج الكريم للأدواء المستعصية والهدى الذى لا تضل بعده أبداً والحق الذى هو منار الإنسانية الأول والآخر .

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)

ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً

القارة الهندية

سبقت البرتغال الدول إلى المحيط الهندي وأرست مراكبها بشواطئ الهند في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بقيادة هنري الملاح وفاسكودى جاما .
ثم تلتها إلى هذه الشواطئ هولندا فاستقرت في الخليج الفارسي ومصايد اللؤلؤ .
ثم اقتحمت هذه الشواطئ يعد لآى فرنسا فاستقرت في الهند حتى زاحتها عليها إنجلترا واستطاعت بعد قليل إجلائها .
وفي سنة ١٨٥٨ انقلبت شركة الهند الشرقية التي أسستها إنجلترا في الهند إلى حكومة .
قبل هذا بقليل في سنة ١٧٩٨ تحرك نابليون من فرنسا يخوض البحر الأبيض حتى وصل إلى مصر تملأ نفسه مطامع ضخمة وآمال واسعة في أن يقيم إمبراطورية في الشرق .
وقد كان وصوله إلى مصر سببا من أسباب يتنقط إنجلترا إلى موقع مصر الجغرافي ولإدعائها بأنها طريق المواصلات إلى الهند .

كان مركز مصر الخطير موضع التقدير من أوروبا حين تفتحت عينها للاستعماريتين على عزو الشرق خاصة ، سيما بعد أن أصبحت شركة الهند الشرقية سلطانا مسلحا في الهند .
فضلا عن أن مصر هي قلب الشرق الأوسط وزهرة الشرق أجمع ، فلا بد من أن تنزوا إليها فرنسا وتهتم بها ، وفرنسا بعد في فجر نهضة نابليون وهي طامعة لأن تراجم إنجلترا وتسابقها .
ولكن الروح المصرية القوية ، الممثلة في القيادة الإسلامية التي يدين بها الشعب إذ ذاك لعمر مكرم كانت كافية رغم ضعفها في العدد والآلات لأن تقاوم الفرنسيين وأن ترجعهم وأن تنغص عليهم أيامهم فلا يجحدون اطمئنانا ولا استقرارا ، إلى أن قام الشعب بثورته الجاثمة في أكتوبر سنة ١٧٩٨ مما اضطر الفرنسيين إلى التفكير في العودة إلى بلادهم وعادوا فعلا في العام التالي ١٧٩٩ يخني حفين وخاصة بعد أن هزم نابليون في عكا - والواقع أن هذا الزحف الفرنسي كان القارة الأولى على أبواب الشرق الأوسط وعن طريق مصر ... وقد لفت هذا الموضع الجغرافي الأنظار فاتجهت إليه أهداف المستعمرين وسبق إليه نابليون ثم بدأت إنجلترا تنزوا إليه في رغبة عجيبة إلى احتلاله والسيطرة عليه وهي التي آزرت تركيا على مقاومة نابليون وأرسلت من وراءه (ولسون) لخطم أسطوله، فعلت ذلك لا لترد عن تركيا ومصر عادية المغير وإنما لتحفظ لنفسها الحق الأول في السيطرة على مصر .

واعتقد أن (حملة نابليون) هي أول عوامل الزحف الاستعماري الغربي بحق ، وإن كان قد سبقت إلى ذلك حركات هولندا والبرتغال وفرنسا في خليج فارس وشاطئ المحيط الهندي إلا أن هذه الحركة كانت تحمل طابع

الاحتلال وروح الطمع في إقامة مستعمرة ضخمة كذلك التي كان يحلم بها نابليون ومنذ هذا اليوم ، يوم مقاومة الانجليز للفرنسيين من أجل مصر وقد اشتعلت نار التنافس الحادة بين فرنسا وانجلترا واستمرت وقتاً طويلاً فلم تنتبه إلا في سنة ١٩٠٤ حينما اتفق الاستعمار على تقسيم العنيفة وابتلاع الأوطان الإسلامية .

وقد بقيت الخصومة وظل الخلاف قائماً بين إنجلترا وفرنسا بعد غزو نابليون لمصر ، ووقعت كلتاهما من الدولة العلية موقفاً مائناً في الوقت الذي صادقت فيه فرنسا محمد علي واتخذها هو عوناً له كانت إنجلترا تصادق الباب العالي وتعقد معه أوامر الصداقة وتعيّنه على محمد علي وفرنسا ، وإن كانت فرنسا لم تكن يوماً مخلصاً في هذه الصداقة فقد غدرت بمحمد علي في آخر الأمر بعد أن أحسن الظن بها وكان لموقفها معه أبعد الأثر في تسليمه بمعاهدة سنة ١٨٤٠ كما سنبين فيما بعد

واشتدت هذه الخصومة عندما اتفقت فرنسا مع مصر على حفر قناة السويس وعارضت إنجلترا في حفرها أشد المعارضة فلما أنشئت عمالت إنجلترا على شراء أسهمها سرّاً في شبه مؤامرة وفي أزمة من أزمات مصر الحادة وظل الحُصام قائماً بين إنجلترا وفرنسا وازداد حدة بعد أن احتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ إذ كان أسطول فرنسا وإنجلترا قائمين في البحر الأبيض معاً عند أزمة يناير سنة ١٨٨٢ ثم أثر الأسطول الأول العودة ، وبعد أن كانت السيطرة المالية في سياسة الديون وصندوق الدين والرقابة الثنائية في مصر تقوم عليها فرنسا وإنجلترا أصبحت تحت سيطرة إنجلترا وحدها مما استدعى بعد ذلك وقوع حادث فاشوده الذي اضطرت إنجلترا أن تعلن أمام فرنسا أن هذه الأرض أرض مصرية .

وظل بعض زعماء الوطنية في مصر يرى أن فرنسا تعطف على القضية المصرية حتى انكشف هذا الأمر عن مؤامرة الوفاق سنة ١٩٠٤ حيث قبلت كل من فرنسا وإنجلترا أن تطلق كل منهما يد الأخرى في قطر من الأقطار الإسلامية ومنذ هذا اليوم زاد ضغط الاستعمار في مصر حدة وقسوة فكان من أثاره حادث دنشواي وكل ما أريد أن أستخلصه من هذه القارعة الأولى أنها كشفت لأوروبا ضعف الشرق عن مواجهة الحركات الحربية الجديدة في الغرب مما قوى مطامع إنجلترا على التوغل في الشرق وعلى محاوله الاستيلاء على مصر وما دعاها في إرسال حملة فريزر في مارس سنة ١٨٠٧ أي بعد ثمان سنوات ، هذه الحملة التي هزمها الشعب المصري قبل أن تنتبه لها الحكومة والجيش الرسمي !

نعم . هزمتها رشيد الباسله هزيمة منكرة وردتها على أعقابها خاسرة بعد أن وقعت معاهدة بالجلاء وبأن كيد استقلال مصر وحريتها

• • •

وكانت زعامة مصر الشعبية خلال ذلك التاريخ معقودة للسيد عمر مكرم ، هذه الزعامة التي قاومت نابليون وتعرفت إلى أسباب العرة والتخلص من الغاصبين وقد جاهد عمر مكرم الظالمين من المالك والأمرأ ووقف في وجه المدخلاء وقاد الشعب ضد نابليون ثم اختار محمد علي لولاية محمد واختلف معه بعد ذلك عندما استبد

محمد علي بالأمر وحين شعر أن الشعب ملثف حول عمر ، وقد كان من قرارات المؤتمر المصري في ١٢ مايو ١٨٠٥ : برئاسة عمره ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها العلماء والأعيان ، وفي ١٣ مايو ١٨٠٥ خلع عمر مكرم الوالي التركي خورشيد وعين محمد علي .

وكتب هذا النص الاسلامي القوي الذي يعتبر مقياسا للشعور الاسلامي القائم في نفوس الشعب إلى ذلك الوقت (إن للشعوب طبقا لما جرى به العرف ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق في أن يقيموا الولاء ، ولهم أن يعزلوه إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم) وقد أزعج هذا الشعور الاسلامي الدفاق نابليون . حاول أن يترضى المسلمين باسلامه ، ثم ظل هذا الشعور يقظا متسلطا حتى جرفته أسباب الاحتلال والرقابة المالية والتدخل الأجنبي وسادت الأوضاع الغريبة الخادعة وانطوت هذه الصفحة المشرقة إلى حين .

والواقع أن هذا الشعور كان مما حارب الاستعمار فيما بعد .
وللذين يقولون أن الدين لا يتدخل في السياسة نضع هذا الملحظ من حياة السيد عمر مكرم فيما عر ضناه أنفا

• • •

ولا نستطيع أن نذكر هذا الجانب دون أن نسجل الجانب الآخر ، جانب العلماء الضعفاء الذين ينطون دائما تحت أكناف الاستعمار ويسببون في ركاب الغاصب ، هؤلاء العلماء الذين استخفهم نابليون بالمال والمناصب ومتاع الحياة وترفها فأطاعوه ، واعتبروا الاحتلال الفرنسي من قدر الله الذي يجدر ان يقابل بالتسليم وكان من نداءاتهم إلى الشعب قولهم (فعليكم ألا تحركوا الفتنة ولا يطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ونصيحتنا لكم ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واشتغلوا بأموار معاشكم وأموار دينكم والدين النصيحة) وهكذا سخر نابليون هذه الطائفة لاهواه ووههاذهبه وغذى مطامعها في المناصب والسلطان ، وهكذا تتكرر المأساة في كل عصر ، فنرى من يتهم عمر مكرم ومن وراءه من المؤمنين بالحرية بأنهم (مفسدين ومنافقين) والتاريخ يعيد نفسه . وهكذا يكون أمثال هؤلاء في كل زمن حرباً على الحق والحرية وعونا للمستعمر والغاصب والدخيل . ويقول نابليون عن هؤلاء في مذكراته (لكي نسوس هؤلاء الناس - أي المصريين - لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وقد كان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤسائهم بأنفسهم ولأن العلماء خلقا لنا ولأنهم أكثر أهل البلاد فضيلة (١) ولا يعرفون كيف يركبون حصانا ولا قبل لهم بأي عمل حربي وقد أفدت منهم كثيرا واتخذت منهم سديلا للتفاهم مع الشعب وألفت منهم (ديون القضاء)

وقد استطاع نابليون حقا أن يستغل هذه الطائفة خوفا من أن يقيم المصريين من أنفسهم رؤساء (كالسيد عمر مكرم) وقد وصف نابليون العلماء (علماء عصره) هذا (الوصف) الخاطيء ، بأنهم ضعاف لينون ، وأنهم لا يركبون الخيل ولا قبل لهم بأي عمل حربي ، ولكن السيد عمر مكرم كان قويا شديداً يسقط الأمراء يقود الشعب إلى النضال

والواقع أن نابليون اشترى هذه الطائفة التي رضيت بالمتاع والنضار حتى استطاع أن يحملها على أن

تقول (ونخبركم أن الطائفة الفرنسية يحبون المسلمون وملتهم ويبغضون المشركين وطبقتهم) وهكذا جن علماء الدنيا وعلماء القطيفة وذلوا فلم يناصروا الغاصبين المستعمرين العداء ، بل كانوا لهم عوناً حتى اعتبروهم بمن (يحبون الاسلام والمسلمين) وما كانوا يوماً إلا حرباً على المسلمين والاسلام .

أليس هؤلاء الفرنسيين الظلمة هم الذين امتنوا كرامة الأزهر واقتحموه يخولهم وأخذتهم وكانوا أول من حمل إلى مصر الخلاء والتهتك والتهالك على الخمر وأول من عبث بتقاليد المسلمين وأهدر كرامة المصريين إن فرنسا كانت ترى في اقتحامها للأزهر واستبدادها بالمصريين انتقاماً من وراء الوعي ترد به على الهجمات مسلي الأندلس على حدودها واقتحام بلادها .

إنها ثارت نهر اللوار وموقعة بلاط الشهداء ١ .

ولكن قوة المؤمنين بحقهم ، الذين قادم عمر مكرم كانت أعظم من قوة العلماء الرسميين الذين يستمدون سلطانهم من الصليب الفرنسي ١ وانتهى الأمر بعودة الفرنسيين وسيطرة هذه الروح الشعبية سيطرة تحكمت بها مصر في مصائر الأمور حتى استطاع عمر مكرم أن يخلع الوالى حين جار وزاغ ؟

بذور الوحدة العربية

بغزو نابليون لمصر ، تنبه الغرب ، إلى أن الشرق ضعيف منحل ، وأنه لا قوة له على المقاومة وأن منار الخلافة في القسطنطينية في حالة النزاع ، حتى أطلق عليه دولة الرجل المريض !

كان هذا بما دعى دول الغرب على أن تفكر في تقسيم الامبراطورية العثمانية في جد ويقظة وأن تحاول كل منها أن ترد الأخرى حتى لا يكون لها سلطان زاحف ، وكانت أوروبا لا تحب لتركيا أن تقوى فكانت تحارب كل حركة يقظة في داخلها وتظل تعين العناصر الرجعية الضعيفة على العمل والبقاء ، وكانت أمم الغرب في الوقت نفسه تتنافس على خطب ود الباب العالي يريد كل منها أن يخطى بامتياز جديد ، وكانت التجارة هي الميدان الأول لهذا التسلسل ولهذا الإستعمار المحجب .

وكانت المدارس والملاجىء ودور التبشير التي تنشر الثقافة الغربية الشائكة الملحدة المضللة هي الوسيلة الثانية وقد استطاعت فرنسا أن تنجح في هذه المهمة فيكون لها حصونا من السكائن والمدارس والملاجىء في لبنان وشاطئ البحر الأبيض الشرقي .

وكانت هذه الدول تؤلب العناصر المختلفة على الثورات والفتن لتزعزع أمن الدولة الشيخة ولتتجمل بانهارها فقامت ثورات البلقان وحرب المورة وحرب القرم .

وكان لروسيا في هذا النضال القدح المعلى وتلك خصومة قديمة عنيفة بينهما وبين تركيا ، لعل مصدرها (جامع أيا صوفيا) الذي تطمع روسيا في أن تحيله كنيسة مرة أخرى ، ثم هذه المضايق التي تود أن تضع يدها عليها لتصل بها إلى البحار الدافئة .

وكانت هذه الدول أيضا تعمل من ناحية أخرى على أن تحول دون أى يقظة في الشرق من شأنها أن تقود الأمم إلى الحرية أو توظف الناس من هذه الغفوة الطويلة .

ولذلك كان من أكبر ما أزعجها حركتان : حركة في شبه الجزيرة العربية ، هي حركة الوهابيين وهذه حركة دينية كانت محدودة بحدود شبه الجزيرة بين نجد والحجاز وإن كانت ذات مطمع في الزحف على العالم الإسلامي كله .

والحركة الأخرى هي حركة محمد علي التي لبست ثوبا حريبا والتي دعت إلى الامبراطورية العربية فكان على أوروبا أن تقاومها بكل وسيلة وأن تدع خلافاتها في قلب أوروبا لتتحد على مقامه هذا الروح الجديد اليقظ الذي يريد أن يخلف تركيا في الشرق فيضم شتات أممها وتوظف شعوبها ، في الوقت الذي تريد فيه هذه الدول أن تستبقى تركيا على حالتها من الضعف والوهن وحالة الممالك الإسلامية على وضعها الممزق المتصدع . .

كانت حركة محمد علي حركة ذات بريق ، وكان رجلا ذا طموح ، وقد واثته الظروف بكل ما يمكن له ذلك من جيش حربي معد ، أسطول بحري قوى ، أم غافية ضعيفة عن المقاومة ، وبطل قائد مغوار (ابراهيم) ولو سار محمد علي على الخطة الطامحة الجريئة التي رسمها ابراهيم على ضوء الحوادث والمواقع التي كان يبلى فيها لنجحت نجاحا

تماما ، ولكن الفوارق بين شباب حاد قوى مجازف في ابراهيم وشيخوخه متربته ذات إنانه وضعف في محمد على كانت سببا في أن تفشل الخطط الأولى ، فلما جاءت المحاولة الثانية كانت أوربا قد أعدت كل شيء لمقاومتها .

جاء محمد على في أعقاب ثورة شعبية وطنية إسلامية من قيادتها إلى السيد عمر مكرم الذي ناهض الفرنسيين والمماليك والتي قامت على أساس الجهاد الديني والتي استطاعت أن تتغلب على كل شيء في طريقها . وقد قيل لعمر مكرم : كيف تثورون على ولادة السلطان الأمرين عليكم ؟ فكان رد عمر ، هذا الرد القوى المفحم ، إن قال .

ألا فأعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحمله الشريعة والسلطان العادل . وهذا الحاكم الذي أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعته . فلقد كان لأهل مصر دائما الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه . على أنني لا أكتفي بذكر ما جرت عليه عادة البلاد من قديم بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيره الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه (

هذا القول لا يخرج مطلقا عن التشريع الاسلامي الصحيح ولكن الأستاذ حسين مؤنس في كتابه الشرق الاسلامي يحلو له أن يردد قولاً لا أساس له من الواقع أو الحق أو التاريخ حين يقول معلقا على تصريح عمر مكرم الذي سجلناه من قبل (إنه قبس الكثير من آراء الفرنسيين وأفاد منها ، فليس من موروث الحكمة الاسلامية السياسية ما يؤيد السيد عمر في موقفه ولم يحدث دائما في أي دولة إسلامية أن خوطب الحاكم بهذه اللهجة الصادقة الواضحة ، ولم يوجد بين المسلمين من يصارح الخليفة بحق الرعية في عزله إذا استبدأ أو أساء) والواقع أن هذا التصريح مزيج أشد الازعاج وخاصة من رجل مؤرخ مسلم ، وهو مالا يمكن أن يصدر عن أي كاتب غربي مهما بلغ به التعصب أو سوء الفهم !

وقد كنت أحب أن يرجع مؤرخونا إلى حقائق التاريخ الاسلامي ليرى - قبل أن يسجلوا - ما إذا كان أمثال هذا وأشد منه قد حدث في عصور الإسلام أم لم يحدث .

والواقع أن التاريخ الاسلامي حافل بأمثال هذه الصور ، وما عمر مكرم فيها إلا بهداهم اقتدى ولعل هناك من المواقف ما هو أقوى أثرا وأجل خطرا وأن السيد عمر مكرم الذي حارب الفرنسيين بقواعد الاسلام لم يكن ليأخذ من الفرنسيين ، بل أن الفرنسيين أنفسهم لا يوجد لديهم هذا المعنى إلا بعد أن سبق به الإسلام بألف عام أو يزيد .

إن السيد عمر مكرم يأخذ من معين الاسلام من غير شك ، أما الفرنسيين فهم أظلم الناس وأبعدهم عن الحرية والمساواة والأخاء ، هذه الألفاظ الخداعة التي ضللوها بها الناس ودلوا بها على روح استعماريه ظالمة طاغية ، ونفس ماجنة داعره لا تقدر على وضع من أوضاع الرجولة ، ولا تطمئن إلى نظام من نظم الكرامة والخير . وآية ذلك أنها خرت صريعة ، كما نخر الغانية ، على قدميها عند ما هاجمتها ألمانيا وصرح زعمائها بأن الروح المعنوية الفرنسية مصابه برخاوة وبجانه وانحلال مما حال بينها وبين المقاومة .

هذه فرنسا الظالمة الغادرة التي أذافت المسلمين في المغرب إلى اليوم وفي سوريا من قبل أشد ألوان الاعنات والطغيان وذبحت منهم الآلاف المؤلفة دون ذنب أو جريرة والتي أبت إلا أن تكون دائماً علماً في الاعتداء على الحقوق والكرامات ، وتسكون دائماً مثلاً في الغدر وإنكار حقوق الإنسان وحرب على مبادئ الثورة الفرنسية الكاذبة التي جعلت منها (عبودية وظلم واستبداد)

إن فرنسا قد خدعت فريقاً من شبابنا فسبحوا بحمدها وتنكروا لتاريخهم ووطنهم لينسبوا كل صورة من صور الخير يلحونها في الشرق إلى مصدر غربي ، ونسو أن في أعماق التراث الإسلامي الذاهر أحداثاً عجيبة ، وآيات تقبض بالرجولة والإيمان .

إن في الإسلام من أمثال ذلك صوراً لاتعد ولا تحصى وإن ذلك الذي قال لعمره أنا والله لنقومك بسيوفنا يا عمر ، لمن أمثال هؤلاء ، وإن ذلك الذي رد عليه حين قال من فوق المنبر أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ففاجئته بقوله لا نسمع ولا نطيع يا عمر لمن هؤلاء أمثال عمر مكرم وأن العلماء الذين وقفوا في وجه معاوية وعبد الملك وهشام وفي وجه المنصور وهارون الرشيد ومنهم أبي حنيفة ومالك والشافعي وعطاء لممن سبقوا عمر مكرم في هذا الميدان وأن أمثال عز عبد السلام والصاوي وغيرهم ممن قاوموا الظاهر بيبرس وغيره لمن هؤلاء أيضاً الذين جاء عمر مكرم ليسير في طريقهم .

بل إن أمام الإسلام الأول يرسم هذا الوضع في وضوح فيقول (أعظم الجهاد كله حق عند سلطان جائر)

فليس هذا بغريب على الإسلام بل إنه من سقياً منبعه ، ومن اشعاع ضياءه ونوره .
ويعلق الاستاذ شفيق غربال على معنى الاستنفار الإسلامي الذي كان قوام جهاد عمر مكرم فيقول (كان لابد أن يحال بين الناس وبين دعوات الجامعة الإسلامية لأن الوطنية الإسلامية شيء غير الوطنية القومية وانهما يتعارضان تمام التعارض وقيام إحداها يبنى وجود الأخرى) .

ويقف هنا هذا الأستاذ المؤرخ موقفاً (غريباً) محضاً ، وبقليل من المراجعة لأهداف الفكرة الإسلامية الصحيحة يتضح أن الوطنية القومية جزء من الوطنية الإسلامية وأن قوة الجزء وحرية وسيلة إلى سعادة الكل وسلطانه وليس من الصحيح - كما يقول الاستاذ حسين مؤنس - إنها تباعد بين الإنسان وبين وطنه وتزهده فيه وتوجه مشاعره وحبه وعواطفه نحو شيء واحد جدير بالحب والحماية والتضحية وهو الإسلام والدولة الإسلامية)

ومن مثل هذه الآراء التي تعرض على هيئة حقائق يستفيد المستعمر وقد استغلتها إنجلترا في موقف مصر من الدولة العثمانية وموقف العرب ، وموقف المسلمين في الهند من تركيا .

وعله العلل في خطأ الفهم لهذه الحقائق هو أن الوطنية الإسلامية - التي يقصدها مؤرخينا - هي الصورة الضعيفة التي كانت تركيا تقاسمها في أيام ضعفها وانهارها ولكن الوطنية الإسلامية التي تقوم على شريعة القرآن وعلى النظام الإسلامي الكامل إنما ترى في كل شبر عليه مسلم أرض إسلامية ووطن

إسلامي وترى أن المسلمين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر .

والوطنية الإسلامية تقوم على الدفاع عن كل جزء من أرض الإسلام ولا تقبل الوطنية القومية كنهاية لأن التحرر هنا إنما يكون على حساب جزء آخر من الوطن الإسلامى .

وأن الفسكرة القومية إنما هى أثر من ربح الجنسية التى هبت على أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر والتى تبخرت اليوم على أثر الدعوات العالمية الجديدة التى تدعو (تشرشل) اليوم ليطالب بولايات متحدة أوربية وتدعو أمريكا لأن تقيم (جامعة انجليزية) بحكم الاشتراك اللغوى بينهما .

فالدولة الإسلامية أولى بأن تتوحد وأن تنادى وأن تشترك فى الآمال والآلام ، والإسلام جامعة تنظم المنطوقين تحت لواءه جميعها ، لأنها تصيغهم فى صورة واحدة وخلق واحد واتجاه واحد .

وليعلم من لم يعلم أن تثبيت الفسكرة القومية والعمل على نسخ الفسكرة الإسلامية إنما هو مقتل من أكبر المقاتل الاستعمارية لروح الوطنية الحق ، إذ أن الوطنية فى الواقع جزء من الإسلام قبل أن تكون معنى مستقل بنفسه ، وأن الدفاع عن الوطن على أساس المثل الإسلامية العليا فى الإيمان والجهاد ومقاومة الغاصب لأروع مظهر وأبعد أثراً وأدنى إلى القلوب من هذه الوطنية القومية الجافة التى لا هدف لها .

وأن النزعة القومية ما قامت إلا لتعلى من قيمة العنصرية والجنسية الخاصة ولذلك قامت معها ربح الفرعونية والأشورية وغيرها ، وكان ذلك من وسائل الغرب للقضاء على (الإسلامية) التى هى مصدر الخوف والانزعاج له ومصدر النضال والنزال والحياة للشرق الذى لا يستطيع أن يعيش بغير نسبه الإسلامى ، الذى ينظم الحياة دنيا ودولة ومجتمعا وقانونا وتشريعا واقتصادا .

وأظهر موقف وطنى فى عهد محمد على هو هزيمة الشعب بقيادة عمر مكرم للانجليزية فى قرية الحاد سنة ١٨٠٧ ولقد كان هذا الموقف الوطنى الرائع ، مما أزعج محمد على ورأى فيه أشد الخطر على سلطانه فقد كاتب الناس عمر مكرم ولم يكاتبوه وكان محمد على وبكره أن يعلوا صوت بجوار صوته وخشى من نفوذ عمر وجلال مكانه .

لقد كان عمر ، وهو الذى رفع محمد على إلى الملك ، يريد أن يكون رقيقا على الحاكم برده عن البغى والظلم والطفان بالنصح والتوجيه خالصا لله فكان ذلك مما توجس منه محمد على وخشاه أشد الخشية ونفاه لأجله

وكان عمر قد وقف من محمد على موقف الخصومة عندما ضج الناس بالضريبة التى فرضها محمد على على المساكن مما أدى إلى أن أمر بنفيه إلى دمياط بعد أن حاول أن يغريه بالمال فأبى فى عزة ورجولة وأصر على موقفه ولم يتزعزع عنه

واعتقد أن محمد على كان مخطئا فى هذا التصرف لأنه كان ينشئ مجتمعا جديدا ودولة جديدة فلا بد أن يجمع حوله الزعامات الشعبية ويجعل لها الكثير من السلطان والتصرف ولو فعل ذلك لاستفاد استمرار النهضة التى بدأها والتى خدمت بمجرد موته ، والحال دون تسجيل انجاثرا ذلك عليه ، ومحاولتها حربيه وقص جناحه باسم هذا المعنى حيث تقول —

(إن محمد على رجلا مسنا يعمل منفرداً وسط نيام ومن المنتظر أن تدركه منيته بين يوم وليلة فما العمل لو حدث هذا وماذا تكون النتيجة لو هدم محمد على الدولة العثمانية اليوم ثم تهدمت دولته نفسها غداً . ألا يجر ذلك إلى نتائج سياسية خطيرة أقل ما فيها حرب عالمية بين الدول على تقسيم هذا التراث الذى آل إليه ثم انفرط من بين يديه) .

صحيح أن هذا القول فيه رائحة التحيز والغرض وفيه رغبة إنجلترا فى الحيلولة دون قيام دولة قوية فى الشرق تقوم مقام دولة الخلافة وتنزع منها مجدها وخاصة محمد على يدعو باسم الأباطورية العربية وهى دعوة محبة إلى النفوس إذ ذاك ، قريبة إلى القلوب ، كذلك هى لا تريد أن تقوم فى مصر بالذات نهضة من شأنها أن تعوق احتلالها لمصر ولذلك فهى قد سارعت - كما قلت - بالاتفاق مع محمد الثانى وإرسال حملة قريزر لقطع فى الأمر مع محمد على وتنتهى أمر النهضة الجديدة فى مصر ولكنها لم تتمكن ولذلك وقف بالمرستون عدو مصر الأول أمام محمد على يناهضه فى شدة وبخاصة فى عنف . ولكن محمد على لو أعد لهذه النهضة وهذه الفتوح وهذه الدولة عدتها من القيادة الشعبية وجمع حوله العاملين لأمكن أن لا يستمر هذا النشاط بعد محمد على ، بل ما كانت الدول الغربية تستطيع أن تقف من محمد على وهو فى شيخوخته هذا الموقف أو يستدعيه هذا السن المتقدم إلى التسلم . كانت إنجلترا تحقد على محمد على لأنه أنشأ المصانع والمعامل واستغنى عن احتكارات إنجلترا وواردات بلادها وزاد الضرائب على الصادر والوارد

وأثرت قوته وفتوحه فى الحجاز والشام على مركز إنجلترا فى البحر الأبيض والخليج الفارسى وقد حول البحر الأحمر باستيلائه على الحجاز والسودان بحيره مصرية وقد وقف من قناة السويس موقفاً دال على حصافه وعقل وبعد نظر وقال لا أريد دردنيل آخر وفى الوقت الذى كان الإنجليز يتهمون به بأنه يعجز عن النهوض بإعباء الدور الذى يقوم به وأنه لا يستطيع أن يحل محل الدولة العثمانية ، كان محمد على قويا وكانت إنجلترا تخفى وراء هذا القول خوفها من بأسه وقوته وصلابته ، التى لم تنتهى به إلى التسليم إلا بعد أن غدرت فرنسا به وطعته من الخلف

كان محمد على باعتراف الغرب (أكبر قوة فى الدولة الإسلامية) وكان يفكر فى إقامة دولة عربية باسم رابطة الدين واللغة مما تخاف منه الدول الغربية على مصير تركيافهم يريدون كما يقول الأستاذ حسين مؤنس (١) - بقاؤها ذليلة خاضعة مفتحة الأبواب مهيضة الجناح لتكون كسبا تجاريا وسياسيا لا تحصل عليه (الدول الأوروبية) إذا ووريت التراب ونمت مكانها دويلات طامحة (والواقع أن حركة محمد على كان من شأنها أن تفقد الخلافة أطرافها فلا تبقى تركيا إلا فى حدودها الخاصة

وانتهزت الدول هذه الخصومة التى قامت بين محمد على وبين الباب العالى وهى لم تكن خصومة تستطيع أن تحمل هذا الاسم إلا بتأجيج هذه الدول وإثارتها لتركيا على محمد على فى الوقت الذى تخاضعت فيه هذه الدول بالذات على الفريسة وكان موقف هذه الدول من تركيا كما يصوره مؤلف كتاب (الشرق الإسلامى) حيث يقول (بعد أن اختلف الأعداء ، كذبت السلامة للفريسة ، فوقفت كل منها عن كسب حذر الأخباريات

وأخذت كل منهن تحتال على الأخرى وتخاذعها وتعزز بها ، أخذ الروس بتقربون من الانجليز ويتوددون اليهم حتى يوافقون الأخيرون على تقسيم تركيا وكانت كل من روسيا وانجلترا على حذر من انجلترا)

عقيدتي كدورخ يستشف الحقيقة من وراء النصوص أن خصومة انجلترا لمحمد على إنما هي خصومة للإسلام تريد انجلترا أن تموت الامبراطورية العثمانية فتقسم الدول الغربية تركتها وتمزقها شرمزق . وهي بالتالي لا تشجع أي حركة جديدة تحمل اللون الاسلامي لأنها ستكون خطرا على مطامعها

شرع محمد على في تكوين دولة عربية تمتد من السودان جنوبا إلى الفرات شرقا وجبال طوروس شمالا وقد لقي هذا المشروع أعنف المقاومة من انجلترا حتى صرح بالمرستون أنه خطر بالغ يهدد مواصلات الامبراطورية ويكتب فنصل انجلترا في بغداد في ٦ / ٢ / ١٨٣٣ يقول (إن أبصار الشعب العربي متجهة في هذه الفترة نحو ابراهيم باشا ، ويكتب معتمد النمسا إلى دولته في ١٦ - ٧ - ١٨٣٣ يقول (إن فكرة تأليف الامبراطورية العربية لا تزال حية ولا تزال موجودة . وأرى إلى جانب ضعف الباب العالي وهزاله جيشا عربيا قويا مدربا على أحدث مبادئ القتال وأرى أسطولا قويا . أضف إلى ذلك يقظة الروح العربية بعد سباتها)

كانت الحملة على الحجاز في ٣ - ٩ - ١٨١١ تبعها طلائع الوحدة إلى الجنوب (السودان) ١٨٢٠ ثم جاءت موقعة (نفاارين) سنة ١٨٢٧ هذه الموقعة التي كانت أول عوامل المسألة المصرية . فقد كانت شبه جزيرة المورة تريد الانفصال عن الدولة العثمانية وبجزر السلطان عن قمع الثورة ومقاومة الثائرين فعين محمد على حاكما على كريد والمورة وأصدر إليه أمره بإرسال كتائبه لقمع الثورة فأرسل إلى كريد حملة مكونة من ١٧ ألف جندي وكان أسطول هذه الحملة مكونا من ١٩٨ قطعة مابين حرية ونقلية وتجارية فقمعت الثورة وسقطت أثينا في ١٨٢٧ عندئذ تدخلت أوروبا المسيحية لتحمي اليونان من تركيا المسلبة دولة الخلافة ومن مصر القوية الفتية فأقرت هذه الدول معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ التي تقضى بفصل اليونان نهائيا عن تركيا وقد وقعها انجلترا وروسيا وفرنسا واشترطت هذه الدول أن من حقها التدخل بالقوة ومن ثم أرسلت هذه الدول أساطيلها إلى خليج نفاارين وتوقف الباب العالي ولم يعترف بالمعاهدة وساء التفاهم بين رجال الأسطول المصري والأوربي فدارت معركة نفاارين في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ وقد تحطم الأسطول المصري في هذه المعركة وتجمعت الدول الغربية كلها ضد مصر الاسلامية وتركيا دولة الخلافة هو أول صور الانتقام والخصومة والافتئات ، فقد أزعج أوروبا أن ترى أسطول مصر القوية يضرب ضرباته القوية في شبه جزيرة المورة فأالت هذه الدول على أن تحطم هذا الأسطول وتسحقه عدوانا وظلما

بدأت الحملة إلى الشام في أكتوبر ١٨٣١ فوصلت دمشق ١٦ يونية وإلى جبال طوروس في يولية ١٨٣٢ وظلت الحملة بين سوريا وتركيا حتى وقعت معركة (نصيدين) في ٢٠ يونيو ١٨٣٩ وبها تحدد موقف الدل من مصر وقد كانت الطريق مجده أمام محمد على وجيشه ليواصل الزحف حتى يصل إلى قلب القسطنطينية لكن كفاءة الجيش

المصري من ناحية وحسن قيادته وسمو مطامح ابراهيم وسوء حالة الجيش التركي كانت تمكن من ذلك في يسر وسهولة ولكن هذا الزحف كان مزججا أشد الازعاج للدول الغربية حتى فرنسا نفسها صديقة محمد علي التي أرسلت إليه في ٨ - ٣ - ١٨٣٢ تهديدا تقول فيه (إذا بقيت متمسكا بمطالبك فإن الأسطولين الانجليزى والفرنسى يتظاهران أمام الشاطئ المصرى فكان رد محمد علي) بأى حق يجوز لك يا سعادة السفير أن تعمل على تجريدى عما غنمته . أن شعبى بأسره يعضدنى به ولوشئت لناديت الرومليين والأناضوليين إلى الثورة ولو شئت لأحدثت حدثا عظيما بمساعدة الشعب العثمانى

وبعد الضحايا التى قدمها شعبى أطالب الآن بالتخلي عن البلاد التى استولت عليها وأن أسترجع جيشى . ألا ترون انكم تصدرون على الحكم بالموت السياسى) .

وقد حاول محمد علي فى لباقة أن يقنع انجلترا بوجه نظره من غير أن يشير أمامها بإنشاء دولة اسلامية فى مذكرته التى رفعها إليها حيث يقول (إن غايى الأولى هى القضاء على سلطان الروس فى تركيا وأنى لن ألبث أن أعد جيشا عدته مائة وخمسون ألفا لمعاونة الانجليز فى تخليص تركيا وفارس من نير الروس) وقد قصد بذلك إلى محالة إغراء انجلترا لقبول اعلان استقلاله . وإن كان المسكر الانجليزى لم يثنه هذا الوعد عن مقاومته والحذر منه . وقد أرسل بالمرستون إلى سفير انجلترا فى كابل :

(لقد كان محمد علي يرمى إلى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد العرب ، والمشروع جليل الشأن بذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا وهذا ما لا يمكننا أن نسلم به فتركيا هى أفضل دولة تملك طريق الهند وهى خير من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ويكون نزاعا للعمل كثير الحركة .

والواجب علينا أن نساعد السلطان على تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فاذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء) .

وكان رأى النمسا (وإذا اعترف باستقلال (محمد علي) فإنه يستطيع بعد هذا الاعتراف بأن يحصر همه فى تنظيم ماليته وفى حشد ١٦٠ ألف جندى منظمة تنظيها كاملا فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهى إنقاذ تركيا من روسيا) . وأرسل بالمرستون إلى قنصل انجلترا يقول :

(أكلفك بأن تبلغ محمد علي باشا بأن حكومة جلالة الملك تلقت تقارير عن حركات الجنود المصرية فى سوريا وبلاد العرب وهى تدل على أنه ينوى أن يبسط سلطة مصر إلى جهة خليج فارس وولاية بغداد فأبلغ الباشا بكل صراحة أن الحكومة الانجليزية لا تستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ هذه المشروعات)

وصل ابراهيم إلى قونية فى ديسمبر ١٨٣٢ وكتب إلى محمد علي بعد فتحها هذا الخطاب الخطير الذى يضع تركيا فى كفة الميزان (أستطيع أن أصل إلى الأستانة فى أسبوع وأستطيع خلع السلطان حالا وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أذرع باتخاذ الوسائل ، اللازمة لأن مسالمتنا لا تسوى إلا فى استانبول فالواجب أن نذهب إلى استانبول كي نغلى إرادتنا ، أنى مضطر أن أكرر على مسامعتك أن بث الدعوة لا يوصلنا إلى أغراضنا وأنت إذا رميت من الاشاعات التى تذيبها إلى غرض سياسى فإننا نهدد

استانبول لتقبل شروطنا كان ذلك من العبث أن نقف في قونية فلا نتقدم منها إلى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الأستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح منا إلا إذا دخلنا عليهم العاصمة ، كذلك فعلوا مع الروس فلم يقبلوا عقد الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى استانبول .

فالواجب أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرية وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا عند التحرر ، وحينئذ نستطيع أن نذيع الأخبار التي تقضى إلى خلع السلطان وإذا نحن لم نفلح في إسقاطه توصلنا على الأقل إلى إبرام صلح يحقق أمانينا ولولا الأمان الأخيران اللذان تلقيتهما منك لسكنت الآن على أبواب استانبول وإني لا سائل نفسي ما هو الداعي إلى إصدار تلك الأوامر أهو الخوف من أوريا أم شيء آخر لا أعرفه ؟ ،

ورد عليه محمد علي بالتقدم فغادر إبراهيم قونية في ٢٠ - ١ - ١٨٣٣ فكتب إليه يقول :
« اليوم بدأ الجيش يزحف إلى قونية وتدل الأخبار الواردة من استانبول أنه لا يوجد في طريقنا قوة تقاومنا حتى أن استانبول ذاتها ليست فيها حركة الاستعداد للمقاومة .

يجب علينا أن نرجع إلى القرار الأول ، أى خلع هذا السلطان ووضع ابنه مكانه على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق فإذا اعترضت على بأن أوربا تعترضنا قلت أننا لا ندع الوقت للتدخل وبذلك ينتفى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبل أن يعرف وبذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع)

وقد أرهصت السلطان هذه الحركة فصرح بأنه يوافق (على توليته ولاية مصر وطرابلس وعمكا وتولية إبراهيم باشا الحرمين الشريفين)

ولكن هذا التصريح كان دسيسة يراد بها التفريق بينه وبين إبراهيم وهكذا فشلت المساعي وعاد محمد علي إلى القتال ، وتقدمت إنجلترا والنمسا لمساعدة السلطان ضد محمد علي وكانت روسيا أول دولة أوربية عرضت مساعدتها لتركيا .

وتقدم إبراهيم في الزحف وحاول الباب العالي أن يستوقفه لحين عقد صلح مع والده فلم يذعن وطلب الباب من روسيا إرسال ٢٥ ألف جندي لمساعدة تركيا .

وقد وصل الأسطول الفرنسى قبل أن يصل الأسطول الروسى ، فى الوقت الذى وصل فيه إبراهيم باشا إلى كوتاهيه ووقف بها بناء أمر والده .

ثم أرسلت فرنسا تهديدها لمحمد علي قالت :

(وإن أصرارك على مطالبك توقع عليك مصائب إذا ازدادت جزعت لها . ففرنسا تتمسك بالعهود التي قطعتها وهي تملك القوة وأنا ضمين إرادتها)

فلما وصل هذا الانذار إلى محمد علي عرف أن صديقه فرنسا تخلت عنه وقال (أنا أعتبر هذا حكما على الموت ولسكنى أعرف كيف أموت شريفا وكيف أجعل موتى مجيدا وسأقابل الحكم وسينى فى يدي فعادت

فرنسا مرة ثالثة تهدد محمد على بأن تسحب جميع ضباطها من جيشه وأسطوله وأرسلت بالاشتراك مع إنجلترا أسطوليهما إلى مياه الاسكندرية .

وشعر محمد على شعورا أكيدا بهذه المؤامرة التي تحاك خيوطها حوله .

وأصر محمد على على شروطه في الاستقلال بمملكته إلى حدود جبال طوروس وخول إبراهيم السلطة المطلقة للمفاوضة وتوقيع الصلح باسمه إذا أجيب مطالبه والرجوع إلى البلاد مع جيشه ، فإذا لم يجب إلى شروطه وأصررت تركيا على موقفها فهو يطلق له حرية العمل ويسمح له بأنه يواصل زحفه وأن يعمل ما يرى عمله دون قيد وعلى أثر ذلك طلبت تركيا من روسيا خمسة آلاف جندي لحماية العاصمة وأصررت على موقفها بأن تعطى لمحمد على مصر ودمشق وحلب وعكا ويبروت وطرابلس الشام وتولى إبراهيم على الحبشة ومكة تكون اذنه اتركيا وادى هذا التسوية إلى وصول سفن روسيا وتسلم اذنه إلى محمد على

* * *

لجأت إنجلترا أخيرا إلى سلاح طالما استعملته بل لعله هو سلاحها الاول في الشرق ، هو الدسائس التي بدأت تحيكمها في سوريا لهدم الدولة الجديدة في الوقت الذي عرف إبراهيم باشا بالصراحة العسكرية التي لا تمتزج بالخدعة والمكر فلم يحل ذلك دون حدوث الفتن والاضطرابات الداخلية

وسعى الباب العالي لدى فرنسا وإنجلترا في ٢٤-٨-١٨٣٤ لاسترداد اذنه وسوريا وبدأت الأحوال تضطرب والجو يكفر في وجه محمد على بعد أن فاتته الفرصة التي أوضحها إبراهيم في رسالته إلى محمد على والواقع ان إبراهيم كان يفهم الموقف على غير ما يريده محمد على وقد عبر عن هذا الموقف بقوله (إني عندما وصلت إلى (قونية) ألححت بكل خضوع أن نكتسب الفرصة لإعلان استقلالنا فرددت على في الحال بانك تكتفى باسم محمد على وكنا في ذلك الحين منتصرين وكانت الفرصة سانحة فلم ترد وعجبت كيف أنه بعد سنتين من تسوية المسألة وإقامة الحدود بطلب الاستقلال)

ثم يقول (لقد أبرم الترك معاهدة في روسيا جاء فيها أن كل خطوة نخطوها وراء الحدود تعتبرها روسيا اعتداء تدفعه عن تركيا ولم تشترط في هذه المعاهدة منع الاعتداء علينا . فالترك يملكون ضمنا منا ولكنهم احرار في أن يهاجمونا ولا تعترض دولة من الدول عليهم ولما وثقت من أن الباب العالي يوقد الثورات في سوريا جنحت إلى طلب الاستقلال مع أن الظروف كانت غير موافقة)

والواقع أن محمد على كان يريد الحصول على أكبر النتائج بأقل التضحيات ، وكان لتدبر سنه بعض الأثر في اختلافه مع إبراهيم واليك هذا التصريح الذي يبين بوضوح مدى مطامع محمد على (إن الساطة التركية تدعى تبوأ عرش الخلافة لأنها تملك الحرمين الشريفين والأرض المقدسة وبما أن الحجاز في قبضة أيدينا الآن فإذا نحن نلنا استقلالنا سقطت حجة تركيا من تلقاء نفسها وسقطت الخلافة عنها . لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا بعد ذلك في المساجد عن السلطان أنه خادم الحرمين الشريفين)

اشتدت حركات التآمر الانجليزى بعد ذلك في سوريا وفكر محمد على في الاستقلال لأن الباب العالى بدأ يحاول هدمه سياسيا (على أساس الفرة الثامة الدائمة بين الوطنيين العربى والتركى) وقدم مشروعه يطالب بسحب الجيوش المجندة على الحدود وأن تضمن الدول السلام ويكون الحكم وراثيا فى أبنائه فرفض هذا الطلب وطولب بالتوقف عن القيام بأى حركة ضد السلطان مع العودة إلى دفع رسوم (الوركو)

وفى مايو سنة ١٩٣٨ ضرب محمد على ضربته الآخرة واستدعى وكلاء الدول وابلغهم أن فى نيته اعلان الاستقلال معتمدا على حق مصر فى انشاء الدولة العربية فعارضت الدول فى هذا المطلب ونصحته بالعدول عنه (لما يولده المشروع من اخطار)

وبدأت حركة ناشطة لمقاومة محمد على واشعلت نيران الدسائس والمؤامرات فى سوريا وحشد السلطان جنوده على الحدود استعدادا للوقعة المرتقبة وأخذت انجلترا تستعد لاداء دورها الأثم بتحريرى تركيا على دفع الحسام فى وجه محمد على مع وعداها اياها بالمساعدة ومعونة النمسا وفرنسا وروسيا

وفى ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٨ زحفت قوات تركيا والتقى بها ابراهيم الطموح فى صدها وتمزيقها والزحف إلى ديار بكر ، وتنازل الجيشان على الضفة اليسرى لنهر نصيبين الذى يصب فى الفرات وانهمز الأتراك بعد لقاء قوى ناهض من جانب العرب والمصريين وفر المتطوعين السكرد وانجلت المعركة اخيرا عن هزيمة الأتراك بخسارة ٤٠٠٠ قتيل وجريح وخسر المصريون خسارة مائة تقريبا واسر ابراهيم ١٢ الف أسير و ٢٠ الف بندقية . وتقدم ابراهيم إلى (عنتاب واورفا ومرعش) ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أن الاسطول التركى سلم نفسه إلى محمد على فى ميناء الاسكندرية

وكان مكونا من (٩ بوارج - ١١ سفينة قرقاطه - ٥٠ كورفت - ١٦١٠٧ بحارة) وبذلك كانت نصر أمكتسحا وفى هذه المعارك والمعارك التى سبقتها صفحات مصرية عربية طافحة بالمجد مليئة بالبطولة والتقدير لكفاية المصريين والعرب على مواجهة الأحداث فى رجولة وقوة ولعل هذا من أهم أسباب التآمر على مصر وعلى النهضة الجديدة

كان الباب العالى اميل إلى الاتفاق مع محمد على أساس أن تكون مصر له وسوريا لابراهيم باشا وعند وفاة محمد على تسلم مصر لابراهيم وسوريا لتركيا ولكن الدول العربية التى حرضت تركيا على مناجزة محمد على بقوة السلاح لتستفحل العداوة والخصومة عادت فلم تترك لمصر وتركيا فرصة الاتفاق مرة أخرى فضربت ضربتها الاخيرة والواقع أن هذه الضربة من أخطر المواقف فى القضية ولها أبعاد الأثر فى تاريخ النهضة الجديدة ، ذلك أن الدول (انجلترا - روسيا - فرنسا - النمسا - بروسيا) اتفقت على إرسال مذكرة إلى محمد على وإلى الباب العالى

تتفق فيها جميعها معا على محمد على وقد امرت بارسالها قبل أن تبدأ المفاوضات بينها
وهذا نص المذكرة :

(إن سفراء الدول المرقعين يتشرفون بان يبلغوا الباب العالي بانهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بان
الاتفاق على (المسألة الشرقية) تام بينها فهم يطلبون منه أن يوقف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظرا لما يكون
له من المنافع التي يرونها)

وكان هذا مؤازرة للباب العالي على مصر ومناورة أرادت الدول بها افساد التفاهم والمفاوضة
وكانت سياسة انجلترا ترمى الى الاحتفاظ بسلام الدول وابقاء محمد على واليا على مصر واعادة سوريا
الى تركيا ومقاومة نفوذ روسيا بها

في حين أن روسيا كانت تؤيد الباب العالي دون شرط محدد لأنها كانت تطمع في أن تلتهمها جميعها وانتهى هذا
الى اتفاق الدول على حصر محمد على في ولايه مصر بالتوارث في أولاده وسوريا في حياته

وصرح بالمرستون بانه (يجب أن تتخذ الوسائل التي تجعل محمد على عاجزا عن الاضرار بتركيا)
وأرسلت انجلترا في ٣ - ١٠ - ١٨٣٩ تقول (أنها توافق على أن تضاف الى ولاية مصر بالتوارث
باشوية عكا ما عدا قلعة عكا التي تطل تحت حكم الباب العالي لأنها مفتاح سوريا وأن تبدى الحدود من جبل
السكرمل) واعتضت فرنسا على هذا الاقتراح في حين وقفت روسيا في صف انجلترا

ثم بدأت المفاوضات بين (انجلترا - روسيا - بروسيا - النمسا - تركيا) انتهت بعقد معاهدة في (١٥ يوليو
١٨٤٠) وقد كانت هذه المعاهدة مؤامرة واضحة على محمد على يتبين ذلك من بعض نصوصها (يتعهد اصحاب
الجلالة بان يعملوا متحدين وبأن يوحّدوا مجهوداتهم لا كراه محمد على على أن يتبع هذه التسوية ويتعهد كل
فريق بان يعاون على بلوغ هذا الغرض تبعا للوسائل التي يستطيع استخدامها في هذا السبيل
وقد جاء في ملحق المعاهدة ما يأتي :

المادة الاولى : يتوى السلطان أن يمنح محمد على وسلالته المباشرة اداره باشوية مصر ويعد بان يتمتع الباشا
بادارة ولاية عكا طيلة حياته وقيادة قلعة عكا مع ادارة الجزء الثاني من سوريا على أن يقبل محمد على هذه المنح
بعد عشرة ايام من تبليغها إياه في الاسكندرية على يد مندوب من لدن السلطان

وعلى محمد على أن يسلم الى هذا المندوب التعليمات اللازمة لقواد البر والبحر لينسحبوا في الحال من بلاد
العرب ومن المدن المقدسة ومن جزيره كريد وادنه ومن الاجزاء الأخرى من أملاك السلطنة الخارجة عن
حدود مصر وباشوية عكا

المادة الثانية : إذ لم يقبل محمد على هذه التسوية في مدى عشرة ايام يسحب السلطان اداره باشويه عكا على
ان يظل راضيا بمنح محمد على وسلالته المباشرة حكم مصر بالتوارث على شرط أن يقبل هذه المنحة في مدى
عشرة أيام تالية للأولى (أى في مدى عشرين يوما) والسلطان يكون حرا في سحب هذه المنح وفي إتباع الخطه
التي توحى بها مصالحه طبقا للنصائح التي يشير بها اليه خلفاؤه

وصرحت فرنسا بقولها (كل المقترحات التي ترمى الى حرمان محمد علي بقوة السلاح من البلاد التي يحكمها الآن من املك تركيا مقترحات جائرة ولا نظن ان ذلك مفيدا للسلطان لأنه مما لا يستطيع صيانتها ولا ادارته) والواقع ان أقل ما يقال نحو هذه المعاهدة انها تأمر واعائنات خاصة وانها معتبرة كمنحه . والواقع انها ليست لمصلحة تركيا بقدر ما هي لمصلحة الدول الطامعة في تركيا وهي خوف من محمد علي : كيانه وقوته ورغبته الى قص جناحه وقصر سلطانه بل والاقتصار على حكم مصر وحدها

اما موقف فرنسا فانه ليس لمصلحة مصر او محمد علي بقدر ما هو لمصلحة فرنسا نفسها ورغبتها في السيادة على مصر او المزاومة في السلطان

اما موقف محمد علي من المعاهدة فهو قوله الخالد في ١٤ أغسطس ١٨٤٠ (ان ما اخذته بالسيف لا اسلمه إلا بسيف)

وقد اتبع هذا القول بالرد على القناصل بعد عشرة ايام بالرفض فأبلغوه بانه لم يبق له حق بولاية عكا ولم يتبق الا ولاية مصر - كما جاء نص المعاهدة

ثم قدم محمد علي عروضاً جديدة لحل الخلاف بينه وبين الباب العالي مباشرة على قاعدة اعادة أدرنه وكريد وبلاد العرب الى السلطان وتكون له مصر ولورثته من بعده وحكم سوريا مدة حياته

ولكن تركيا المسكبله بسلطان الدول المتآمرة على محمد علي ارسلت له فرمانا بعزله من ولاية مصر تنفيذا للمعاهدة بعد إنتهاء المدة المقررة من ثم أصبحت مصر في حرب مع تركيا وحلفائها واتخذت إنجلترا هذه التكة لإرسال الأسطول ثم أرسلت حملة من ٧ آلاف مقاتل ٥٣٠٠ عثماني و ١٥٠٠ بريطاني ونمساوي في ٩ سبتمبر ١٨٤٠ واشتردت بيروت وصور وصيدا

وهكذا عادت سوريا الى الحكم العثماني ثم عرضت فرنسا على محمد علي أثر ذلك التفاهم مع الباب العالي ووافق الحلفاء نار الثورة في سوريا ضد محمد علي

فأرسل على أثر ذلك قوة عسكرية واخذت إنجلترا تدبر الدسائس في نطاق واسع في سوريا وجبل لبنان بالاتصال بالثوار وحشهم على التمرد والمقاومة وإرسال الشكاوى الى الباب العالي وسفارتي إنجلترا وفرنسا من الحكم المصري والمطالبة بعودة الحكم العثماني على الاحتفاظ بحكم مصر الوراثي في اسرته وحكم سوريا مدة حياته والتنازل عن كريت وادرنه وجزيرة العرب فأبلغ الباشا هذا الباب العالي فرد عليه بالرفض فتأثرت فرنسا بذلك وانصرف الاسطول الفرنسي عائداً ووقف محمد علي وحده في المعترك امام أوروبا والدول العثمانية

وبذلك نفضت فرنسا يدها من المسألة المصرية وبذلك أيضا تخلت فرنسا من وعودها لمحمد علي (وكذلك (١) شجعت فرنسا محمد علي على مقاومة الحلفاء ورفض اقتراحاتهم وأدرك محمد علي بعد تخلي الفرنسيون عنه وبعد إستيلاء الحلفاء على الساحل الشامي ان المقاومة لا تفيد وأن الأفضل له العمل

بالطرق الدبلوماسية ولذلك لم يتردد في الاتصال بالسكومندان (نايار) قائد قوات الحلفاء حين وصل إلى الاسكندرية) .

ووجه (نايار) الذى قدم للقيام بمظاهرة بحرية رسالة قال فيها (ان الاسكندرية ليست أمنع من عكا وأن الفرصة سانحة لمحمد على ليؤلف امارته ويحفظ بالوراثة في أسرته) .
ومن ثم بدأت المفاوضات في (٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠) لعقد صلح على (قاعدة جعل مصر والسودان إمارة وراثية في بيت محمد على) .

على أن يتعهد بأن يصدر أوامره إلى ابنه إبراهيم باشا باجراء الجلاء فوراً عن سوريا ويتعهد بإعادة الأسطول العثماني بمجرد أن يصله إخبار رسمي من الباب العالي يتنازل له عن حكم مصر الوراثي وأن يبقى ذلك الحق كما كان مكفولاً من الدول .

ونشر محمد على بيانا قال فيه (عرض لنا اتفاق دولي أوروبا على احالة حكم مصر لنا بطريق التوارث وبذلك صار حسم سفك دماء المسلمين وصدر الأمر بترك الشام والأذن بحضورهم إلى مصر بالجيش التي يبلغ عددها ٧٠ ألف .

وصدر بذلك فرمانا في ١٣ - ٢ - ١٨٤١ بتولية محمد على حكم مصر وبجعله في عقبه وقد حدد هذا فرمان سلطان محمد على وحدد الجيش ولم يجعل لمصر حق بناء سفن حربية إلا بإذن من الباب العالي على أن يرسل ربع إيرادات الحكومة من الجمارك والخراج والضرائب إليه وفرمان آخر بتولية محمد على إدارة أقاليم السودان وهي (النوبة وكردفان ودارفور وسنار) ومن ثم جلى عن الشام وعن بلاد العرب وأعادها إلى الأتراك .

وهكذا ترون كيف تمت هذه المؤامرة بقص جناح محمد على وتمزيق ملكه الذى كونه بحمد السيف وتآلب الدول الغربية لمقاومته وإبادة قواته .

وليس الموقف مؤلماً من ناحية إنجلترا والحلفاء فحسب باعتبارهم متواطئين على هدم هذه النهضة الجديدة بل إن موقف فرنسا لا يقل إيلاماً وكشفاً عن حقائق هؤلاء القوم وعلى مدى ما يكنون في نفوسهم من رغبة إلى مقاومة كل حركة إسلامية قوية .

تخلت فرنسا عن محمد على لما رأت أن مركزه قد تدهور ولم يقف الأمر عند هذا بل أنها طعنته من الخلف بعد أن اعتمد عليها في مواجهة إنجلترا والحلفاء ، وقد أحسن محمد على الظن بها واعتمد عليها فخدعته آخر الأمر ونضع تصريح كوشلين إلى محمد على هذا رمزاً لهذه الخدعة الآثمة

(إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوربية أيضاً . إن فرنسا أيدتك ولكنها لم تستطيع أن تتخلى عن روابط السياسة التي تربطها بأوروبا وإنجلترا خاصة) ١

وقد علق محمد على هذا التصريح فقال (لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن أخلاقها لخطارى وإنما وددت لو اقتصرتم فلم تقف منى موقف العداء)

ولقد كان لهذا الأمر أبعاد الأثر في نفسية محمد علي وفي موقفه الأخير الذي اضطر فيه أن يسلم ويقبل ما كان يرفضه أولاً ، واستطاعت الدول الغربية أن تضطر محمد إلى الانسحاب من سوريا وجزيرة العرب بعد هذا الجهد الضخم الذي بذله في فتحها

وقد دبرت إنجلترا مع الحلفاء هذه المؤامرة سنة ١٨٢٧ بعد إشراك محمد علي في حرب اليونان وتم لها تنفيذها سنة ١٨٤١ جزعا من قيام أمبراطورية عربية وحكومة إسلامية بدلا من تركيا المهذمة المتخاذلة .

ويصدق الأستاذ أمين سعيد حين يصور هذه المؤامرة حيث يقول (كان (١) الانجليز هم الأعداء الطبيعيون لحركة محمد علي ونهضته لأنها حالت بينهم وبين الإستيلاء على وادي النيل ، وهم أول من تحرك لمقاومته وقد مدوا أيديهم إلى الروس أحلاف اليونانيين وأنصارهم متناسين في سبيل القضاء على الحركة الجديدة كل صغن)

* * *

وكذلك نريد أن نقول بعد هذا التصوير الموجز السريع للحركة الإسلامية العربية الأولى أن إنجلترا عدوة الاسلام الأولى هي التي حاكت هذه الدسائس كلها لتزيق هذه الحركة وكذلك وقفت إنجلترا في وجه النهضة الإسلامية منذ اليوم الأول ثم وقفت في وجهها مرة أخرى في مصر والسودان ١٨٨٢ ووقفت في وجهها مرة ثالثة في ١٩١٨ مع الشريف حسين ومع تصريح بلفور وملنر وهور .

هذه المؤامرة المتصلة الحلقات في الشرق الاسلامي كله والتي سنفضلها فيما بعد

ويؤخذ على محمد علي امرين : أولهما انه لم يشرك الشعب في هذه النهضة القوية وحارب كل زعامة شعبية وكل رأى معارض ، وثانيهما انه لم يستمع إلى رجاء ابراهيم منذ أن وصل قونيه في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ بالزحف على استانبول وخلع السلطان

وكذلك تحقق ما قدر الانجليز بأن ماتت هذه النهضة بموت محمد علي ولم يجد الخلف الذي يكل اليه تغذية هذا النشاط بل ان استسلامه آخر الأمر كان شعورا قويا منه بالعجز عن المقاومة لامتناع وجود الجبهة التي تسير ورائه وتحمل عنه العبء

هذه هي الحركة الإسلامية الاولى التي كشفت عن خصومة إنجلترا والغرب بوضوح ووقوفها مع الدول الصليبية في وجه القضية الإسلامية واليقظة الشرقية.

تاریخ اصطلاحات انجلیزی لواری نیل و تیاره اسود

obeykandi.com

مكان مصر في المسألة الإسلامية

دخلت الدولة العثمانية في دور الهمود والخنود ، وهو دور طال بتركيا وامتد ، ولكنه كان على كل حال دور الاحتضار .

وتطلعت الدول الغربية لمطامعها في الشرق الإسلامي الذي كان يستظل بظل الدولة العثمانية وينضوى تحت لواء الخلافة الإسلامية .

وكانت الثارات القديمة ، والعداء المتأصل في نفوس الغرب للشرق وفي ضمير الصليبية الغربية الاستعمارية للإسلام هو الذي يدفعها إلى استدناء أجل تركيا والاستعداد لتقسيم ترابها ومحاولة قمع كل حركة يقظة في داخل تركيا العثمانية تحاول تجديدها ، أو حركة في أي قطر من أقطارها تحاول بعث روح الإسلام .

وقد برز معنى أهمية مصر في الحملة الفرنسية وفي النضال الإنجليزي الفرنسي عليهما منذ هذه الحملة إلى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودي .

وقاومت إنجلترا وروسيا كل محاولة في داخل تركيا لتجديدها أو إنهاضها واتهم الداعون إلى التجديد دائماً من الوطنية بالمروق والخصومة للخليفة والخروج على الدولة .

وقاومت الدول الغربية مجتمعة حركة اليقظة التي بدأها محمد علي حتى قصت جناحيه في الشام والحجاز وحجزته داخل حدود وادي النيل وحطمت مشروعه الكبير

ثم نشطت روح الاستعمار في الخليج الفارسي والهند والجزائر في ختام القرن التاسع عشر حتى كان احتلال الجزائر ١٨٣٠ سابقاً لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢

يبد أنه لم يكن بالجزائر حركة إيقاظ إسلامية لها خطورتها ، وإنما كانت فرنسا باحتلالها تحاول أن تسيطر على الجزء المواجه لها في جنوب البحر المتوسط .

ولكن مصر التي حملت لواء المقاومة الإسلامية بقيادة عمر مكرم في عهد نابليون والتي استطاعت أن تسيطر فتعزل الولاة وتولي غيرهم في عهد محمد علي واستطاعت أن تقود الجيوش فتهمز الحملات كما فعلت بحملة فرير .

مصر هذه ، التي وجد فيها محمد علي روحاً قوية فاستغلها وفتح بها جزيرة العرب وبلاد الشام ووصل بها شمالاً إلى أدنه وجنوباً إلى البحيرات وكان لها أسطولاً جباراً هدد الدول الغربية في عقر دارها وهزم كتائبها في مياه تقارين وكان لهم جيشاً برياً ضخماً لم ينهزم عن ضعف .

مصر هذه التي كان محمد علي يقودها إلى الزعامة الإسلامية واليقظة الغربية ليكون لها سلطان تركيا ومكانها مصر هذه التي كان يطمع محمد علي أن يعيد بها مكان القيادة للعالم الإسلامي حين يصرح بأن الحرمين الشريفين

في قبضته فلا حجة لتركيا في الخلافة وأن الدولة التي تحمي الحرمين هي أولى بأن يكون بيدها مقاليد الزعامة ، وأنه لأقيمة للخلافة الاسلامية دون أن يكون للخليفة السلطان على الحرمين ولا تكون له فيهما يد مصر هذه هي التي كانت موضع الخطر في نظر الدول الغربية المتحضرة .

هذه مصر ، التي تيقظت لقيادة الشرق في وقت غفلت فيه دول الشرق الاسلامي كله ، كانت مصدراً من مصادر الخطر على الاستعمار الزاحف ولذلك كانت أول دولة فكر الاستعمار في قص أطرافها ، وما زال يلح عليها حتى هدم بنيانها ونقلها في سبعين عاماً من الدولة الأولى في الشرق الاسلامي عزة وقوة وسلطاناً ومجداً إلى دولة لا حول لها ولا طول رازحة تحت حماية بريطانيا ، ومكبلة بقيودها ، ومخطمة في كيائها الاجتماعي والسياسي ، قد نفذت إليها سموم الحضارات وآثام الاستعمار وتحولت روحها الاسلامية إلى لون مضطرب من التشكر للباضي والاحاد في الفكر والإباحية في المجتمع والذل للغاصب .

* *

ويمكن تقسيم مراحل المسألة الاسلامية إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول منذ الحركات الأولى التي ظهرت على شواطئ الخليج الفارسي والهند وفي مصر وتركيا وساحل البحر الأبيض الشرقي في صورة التجارة والعلم والامتيازات إلى الحرب الكبرى الأولى وأظهرها الحركة العربية التي قادها محمد علي في مصر في النضال الطويل بين مصر والدول المستعمرة على قتل هذه الحركة ووضع مصر تحت السيطرة الاستعمارية .

والقسم الثاني من الحرب الكبرى الأولى إلى قبيل الحرب الكبرى الثانية وفيها ظهرت حركتان الحركة الاستقلالية الوطنية في وادي النيل والحركة الاستقلالية العربية في الشرق العربي .

والأولى نتج عنها ثورة ١٩١٩ وانتهت بقيام دور السياسة الحزبية التي خلفت الجهاد الوطني والثانية نتج عنها الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ وانتهت بتمزيق الدول العربية إلى وحدات مستقلة في الحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق لكل منها مشاكلة الخاصة وأحداثة القومية .

والقسم الثالث من الحرب الكبرى الثانية ١٩٣٩ إلى قيام الجامعة العربية وحركة أندونيسيا والباكستان وغيرها

الخصومة بين مصر وإنجلترا

« الغدر » هو الرمز الأعلى لهذه الخصومة الآثمة التي قامت بين الغرب والشرق والتي تجلت في محاولة استيلاء دول الغرب على الوطن الاسلامي وتجريده من حريته وكرامته وثروته ثم الالحاح عليه بالتزيق ومحاوله تلم أجاده وتشويه تراثه وأفساد روحانيته والعلاقة بين مصر وإنجلترا ، لم تسكن في يوم من أيامها علاقة تدين ؛ ولم تقم مرة واحدة على أساس الثقة أو الوفاء من جانب الغاصب ، فإذا تعاهد القوى والضعيف نفذ المغلوب التزاماته كاملة ، وتحلف الغالب فلم ينفذ حرفاً منها ، بل لعله عمل على نقضها والمعاهدات قصاصات ورق هي غرم على المغلوب والمحتل ، وليست أمام الغالب بما يعتد به أو يأبه له ، والعقود والاتفاقات لحرمة لها ولا كرامة ولا رعاية إذا شاء الاستعمار أن يشق طريقه داسها دون مبالاة وقد خدع عرابي يوماً عن معاهدة القناة ووطن أن إنجلترا لن تخرق حيادها المكتوب في الصكوك فإذا بها لا تبالي هذا المعنى ولا ترعاه . ووطن المصريون يوماً بعد توقيع معاهدة ٢٦ أن مصر مستقلة وأن لها حريتها في أوضاعها الداخلية فإذا بإنجلترا تخنق هذه الحرية وتهجم هجومها المسلح لتفرض وزارة معينة وشخصاً بالذات في ٤ فبراير ، وقد ظن العرب من قبل أن اتفاقية (الشريف حسين - مكماهون) حجة صادقة ، وصك لاريب فيه فإذا بالغدر الانجليزي يتجلى في إعلان عدم اعترافه بهذه القصاصات

وخيل لبعض المخدوعين في أعقاب الحرب الأولى أن مبادئه ولسن في تقرير المصير هي حق مقرر ومبدأ منقد فإذا به يصفع المصريين بما يحطم هذا الأمل ويمزق هذا الستار الخادع عن الغدر الغربي الاستعماري حين يقر الحماية المضروبة على مصر

ومن نفس الجحر لدغ أهل الشرق الإسلامي بميثاق الاطلنطي مرة أخرى ثم لمسوا بعد ذلك مدى التضييل والنفاق في هذه التصريحات والمعاهدات

وخدع الناس بعصبة الأمم ثم أعلنوا فشلها وهامم يخدعون مرة أخرى بمجلس الأمن وهيئة الأمم وتبين لهم أنهما لم يخرججا في الواقع عن تنظيم للاستعمار وتقسيم للسيرات بين كبار الغاصبين والغادرين بحقوق الناس وكرامات الأمم وحرريات الشعوب

والوضع القائم بين مصر وإنجلترا ليس هو في الحقيقة إلا ، الخصومة ، هذه الخصومة التي غذتها إنجلترا بالأحداث والآلام والمظالم والآثام منذ سنة ١٨٠٧ أي منذ أكثر من قرن ، لم تتردد إنجلترا خلاله في أن تسوق الدليل تلو الدليل على مدى مأساة مصر من غدر ، ومدى ما يبلا قلبها من حفيظة ، ومدى ما تريد أن تقتل في هذه الأمة من كرامة وعزة

ولقد واجهت مصر هذا (الغدر) مواجهة الصبر والاحتمال والأناة في بعض الأحيان ومواجهة المقاومة والخصومة في كثير من الأحيان ولم تلن قناة مصر للضم ولم تستسلم للدخيل ولم تخز أبداً تحت أقدام الاستعمار

والحق أن إنجلترا لم تواجه مصر يوماً مواجهة نزال أو حرب إلا مرة واحدة ، في سنة ١٨٠٧ وقد ردت مصر هذه القوى المعتدية على أعقابها مهزومة مدحورة ، وقد كان هذا بفضل جهاد الشعب ومقاومته قبل أن تصل حملة الجيش ١

ومنذ ذلك اليوم لم تحاول إنجلترا أن تواجه مصر بل عملت على التآمر والغدر والخيانة إن إنجلترا الماكرة الظالمة كانت تطمع في الاستيلاء على مصر منذ أن ألقت الحملة الفرنسية مراسيها في الاسكندرية . وظلت تطوى النفس على هذه المحاولة وتتربص بمصر الدوائر حتى ردتها مصر خاسرة في سنة ١٨٠٧ ومنذ ذلك اليوم ظلت تعمل عملاً متواصلاً حتى تمكنت من ذلك في ١١ يولييه سنة ١٨٨٢ حين ضربت الاسكندرية وأعلنته في وضوح وجلاء حين أعلنت الحماية على مصر في ١٨ - ١٢ - ١٩١٤ وفصلت مصر عن الدولة العثمانية

وقد أخذت منذ اليوم الأول تناوى محمد علي ونهضته الجديدة ورغبته القوية في إقامة دولة إسلامية فنية في الشرق ، فألبت عليه أهل الشام وتعاونت مع الساطان لهدمه وكادت له أشد الكيد وظلت تهدم مجد مصر حجراً حجراً ، وأخذت تحيك الدسائس ، حتى اختلست أسهم قناة السويس التي تملكها مصر في لحظة من لحظات الحرج وحالة من حالات الضيق المالي واشترتها بأقل من قيمتها بكثير ، بل في الواقع بما يساوي ٨/١ من قيمتها وبهذا أتيح لإنجلترا فرصة طالما طمعت فيها وأملأ طالما حاولت الوصول إليه ، منذ ذلك اليوم وضعت يدها على دولاب الحكومة وتدخلت تدخلا فعليا في أمور مصر الداخلية

وأخذت تصور مصر للعالم الغربي في صورة البلد المرتبك من الناحية المالية ، الضعيف من الوجهة الاقتصادية العاجز عن تسديد التزاماته ، وتمكنت من أن تعرض الدائنين على الاضطراب وإرهاق كاهل الحكومة بالمطالب ؛ وعمل المناورات برفع أسعار الأوراق وخفضها محاولة بذلك تأكيد معنى الاضطراب وعدم الاستقرار هذا في الوقت الذي كانت المالية المصرية فيه لا تعجز مطلقاً عن دفع « أرباح الديون » بل كان في الاستطاعة أن تسدد جانباً من هذه الديون نفسها

فلما احتلت إنجلترا مصر باسم « مصالح الدائنين » استطاعت أن توقف هذه الحملات المصطنعة وأن تحدد الحالة إلى طبيعتها فتقوم الخزينة بدفع التراما بانتظام ويتخذ من ذلك حجة على نتيجة « الإصلاح » الذي قامت به في مصر وتجعله ذريعة تؤكد به بقاءها باسم هذه الديون الملعونة ، وتتخذ لها من الدائنين النصير على هذه المؤامرة وبمراجعة مالية الحكومة المصرية - إذذاك - يتضح أن هناك عدة ملايين كانت « فائضة » عن المصروفات وكان في الامكان - لو حسنت النية - أن تسدد من دين مصر وليكن إنجلترا الغادرة حالت دون ذلك لأنه يضعف الأسباب المنتحلة للبقاء في مصر وقد علمت إنجلترا على تبديد هذه الأموال وأهدارها في مشروعات تافهة قصد بها التخلص من هذه الأموال قبل الاستفادة من هذه الأعمال

ثم عملت على اضطراب الأمن والاخلال به وأعانت على خلق روح الثورة والتمرد وأحدثت مؤامرة مذمومة الاسكندرية لتظهر للعالم الغربي مدى الخطر المتسلط على حياة الأجانب وبهما معا - الارتباك المالي واضطراب الأمن - وخطرها على أموال الدائنين وحياة الأجانب تعلت إنجلترا لاحتلال مصر

ومن هذا تبين كيف أن إنجلترا أخذت مصر غدرًا واغتيالًا ولم تتمكن من مواجهتها مواجهة الحرب أو الخصومة السافرة أو المنازلة الصريحة ، وأنها احتالت لذلك بكل وسيلة أضعفت نهضة محمد علي حتى جردته من امبراطوريته وحصرته في مصر ، ثم اغرت مصر بالاستدانة حتى أسرفت فيها ، ثم حملتها من ذلك إثارة الاضطراب ثم حاربت مشروع إنشاء القناة فلما أنشئ عذرت مصر في حصتها من الأسهم واشترتها من غير حق شرعي صحيح يبيح للدول شراء الأسهم . .

ثم أخذت تعمل على تمزيق الوحدة وإثارة الفتنة بين المصريين والأجانب حتى أحدثت مذبحة الاسكندرية ثم ألحت على العلاقة بين الخديو والحكام فأفسدتها وتدخلت بأسطولها في يناير سنة ١٨٨٢ وطلبت إيقاف الدستور ونفي عرابي وعدم تحويل مجلس النواب نظر الميزانية .

ثم مازالت توجع نار الفتنة والخصومة حتى اتسعت شقة الخلاف بين الخديو وعرابي وانقسمت الأمة إلى معسكرين ، أعانت هي المعسكر الشعبي بصنائعها الذين أعانوا على الثورة وحرصوا على المقاومة أمثال (بلنت) وأعانت المعسكر الرسمي بالتأييد الفعلي بأمثال كلفن وسيمور وولسلي . وظلت كذلك حتى خفقت هذه المؤامرة خدعة واغتيالًا ، فلم يكن التعلل باصلاح طوابع الاسكندرية مما يقبل في العرف الدولي كوسيلة لضرب الاسكندرية ، ولم يكن للأسطول المحاصر للاسكندرية الحق في أن يتدخل في شؤون مصر فضلًا عن أن يكون له الحق في أن يضربها بالقنابل لسبب ما ولسكنها النية المبيتة وسبق الأصرار على احتلال مصر وعلى أهدار حريتها . . .

وقد أعلنت إنجلترا منذ اليوم الأول أنها جاءت تثبت سلطة الخديو وأنها لن تنتظر بعد أن استتب النظام وظلت تتغلغل بمثل هذه العله وغيرها عاما بعد عام ، في الوقت الذي كانت تعمل فيه لبقاء طويل ، وتستعد فيه لأعمال ضخام .

وفي الوقت الذي كانت تلتقي بهذه التصريحات الكاذبة عن الجلاء كانت تستدعي « دوفرين » ليضع دستور الاحتلال ، وفي الوقت الذي كانت تفرض « نصائحها » على الحكام وترغمهم على الاستقالة إذا رفضوا إجاباتها وفي الوقت الذي تتدخل فيه تدخلًا فعليًا في أمور مصر فتأمر باستدعاء قائد مصري من السودان ليحل بدلا منه قائد انجليزي ، مما ينتهي بهزيمة مصر في معركة (كوشان)

وإذا بانجلترا تلزم مصر على إخلاء السودان ، ويقاوم شريف باشا هذا مقاومة الأبطال ويقول كلمته الخالدة (إن تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا) وإذا بوزير الخارجية البريطانية « جرانفيل » يبرق بأمره الإلزامي في قبول نصائح إنجلترا دون معارضة وإذا بشريف يستقيل ويخلفه نوبار فيسلم في تنفيذ رغبة الانجليز وينتهي هذا بالعودة إلى السودان ١٨٩٧ باسم مصر ولحساب إنجلترا ، وبجيوش مصر وبسلطان إنجلترا وباسم بدعة البدع في السياسة الخارجية « الحكم الثنائي » ،

وسقت إنجلترا مصر كؤوس الصاب والملقم وصال كرومر في رباها وجال وتسلب وتجبر ، في تسلط

عاصف وطغيان ظالم ، واتسمت أعماله كلها بروح الانتقام من هذا الوطن الكريم وكله مقاومة لوطنية وحرية وظهر ذلك في أجلى صورة بمحادث دنشواى الذى تجردت فيه انجلترا من كل إنسانية وعدالة وبدأت أمام العالم في صورة الوحشية والاجرام الذى لم يعهده التاريخ في أسوأ عهوده وأظلم أيامه مما عزع مكانة (كرومر) وأجج نار الوطنية في مصر ومدّها باللب والاشتعال وتكشفت انجلترا بهذا الحادث عن حقيقتها الغادرة التى طالما اخفتها وراء الألفاظ المعسولة والكلمات العذاب

وانتقلت سياسة السلطة الشرعية في مصر من المواجهة والمقاومة وإعانة الروح الوطنية وامدادها بالعون والتأييد إلى الوفاق والمسايرة والاستسلام ، مما أدى إلى مقاومة الوطنية نفسها

أعلنت الحرب الكبرى وانتقل موقف مصر ، التابعة لتركيا رسمياً ، والمحتلة بالجيش الانجليزية باسم تثبيت سلطة الخديو إلى حماية انجليزية صريحة مع قطع صلتها بتركيا بعد أن انضمت إلى ألمانيا وقاست مصر إبان الحرب الكثير من آثام الاحتلال ، فقد جند من المصريين مليون ونصف مليون سيقوا في جيش الغاصبين يقاتلون معهم على غير مبدأ أو غاية وقد أكلتهم الحرب في صحراء سيناء والعراق وجندت المرافق والمحاصيل المصرية كلها لحساب انجلترا وجمعت بالاكراه حتى صرح ملنر : « إن الشعب المصرى تحمل التكاليف والقيود التى اقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا ولكن أين نتيجة هذا القول ، إلا الخسة والغدر في مقاومة حقوق الوطن الواضحة في الحرية والاستقلال هذه الحقوق التى أعلنت انجلترا في تبليغها بالحماية أنها (وديعة نمت يدها لسكان القطر المصرى) وقد احتمل المصريون في الحرب الأولى - كما احتملوا في الحرب الثانية - ألواناً من المعاملة السيئة والاعتداء الفظيع من جنود (الحليفة ١) فضلاء عن قسوة الأحكام العرفية وتكميم الصحف ومنع الاجتماعات واعتقال ونفى البراء دون تحقيق أو محاكمة .

ويظل هذا التدخل والتسلط - مما هو مفصل فيما بعد - يقوى ويشدد ، ويتخذ في كل مرة ثوباً من الحيلة أو الخداع أو التضليل أو التحذير حتى تقع الواقعة ويولد هذا الضغط المتصل الانفجار القوى فتحدث ثورة ١٩١٩ ، التى صنعها الشعب وقادها وليس لزعيم فضل عليها بل هى تاج الفضل لكل زعيم .

هذه الثورة القوية الجبارة التى لم تجد رجالاً يقوموا على مجدها ، وإنما وجدت خصوما يضعون الماء على نارها ، ويسايرون الغاصب في أساليبه العجيبة الغادرة لتخدير مشاعر الأمة وقتل روحها الوطنية المتأججة المنحفضة إلى النضال الطويل .

ثم تواجه مصر حالة جديدة ، ليست خيراً مما سبق ، فقد استطاعت انجلترا أن تتخير فريقاً من المصريين ليسير في ركبهم ويعمل على تخفيف الخصومة ، والمساومة في الحقوق ، والمجاملة في الوطنية ، واسلم الى هذا الفريق قياد النهضة وسلم ميراث الثورة فساق الوطن في ربع قرن كامل بالخداع والغش ، والمناورة والمساومة وقتل روحه الوطنية المشتعلة ، وشغله بالغرض القليل . وأنساه الهدف الأكبر

وظلت هذه الزعامة الحزبية تمزق الأمة إلى شيع واحزاب ، وتثير في هذه الاحزاب الفتن والأحداث ،

وتتقاتل وتتصارع حتى نزلت بالامة من المقاومة الوطنية إلى الخاضعة السياسية ، ومن أسلوب القوة والجرأة ، إلى مهازل الضعف والخضوع ، ومن لغة الحق والخير ، إلى نهش الأعراض والظلم والاعتساف

وانساق الزعماء إلى خصومة لا تبقى ولا تدرك ، وتقاتلوا على المناصب والمتاع ، واضطربت الأمور أشد الاضطراب وساموت إنجلترا مصر أبشع لمساومة ، وظلت هذه المعسكرات المتخاضعة تفاوض الانجليز في الحق الواضح وتطالب بحقوق الوطن على موائد المفاوضات فانتقل الأمر من خصومة للانجليز إلى مجاملة ومحالفة وصداقة

واغضت هذه الزعامة الطرف عن الضربات الانجليزية القوية التي تواجههم بها حرصاً على البقاء في الحكم ، والتي تواجه بها الوطن حرصاً على الوصول إلى الحكم

وظالت إنجلترا على ، غدرها ، المعهود واساءت إلى مصر سنة ١٩٢٤ باخراج الجيش المصرى من السودان ، وتعطيل الدستور سنة ٢٩ وتغييره سنة ٣٠ وبالعائنه سنة ٣٥ وضربت مصر الضربة الكبرى بمعاهدة الشرف والاستقلال سنة ٣٦ واعتدت على حرية الوطن أشنع إعتداء في ٤ فبراير

. . . واستيقظت الوطنية المصرية على فهم الحقائق وعلى مخاضة الاحتلال ومقاومة أذئاب الانجليز من المصريين وعرف الشعب حقه ، وعرف خصومه ، وفهم كيف جنت عليه الحزبية فقاومها مقاومة فعلية سنة ٣٥ وسنة ٤٦ وضرب الشباب بالرصاص مرة ومرة وهو ينادى بالجللاء عن وادى النيل ولكنه أصر على أن ينادى باعلان فشل الحزبية وانهارها

الزعامة الحزبية

والحق انه كان نضالا طويلا حاداً ، ولا يزال مستمرا وقويا وحاراً وسيزداد مع الأيام عنفا وحده بين ابناء الوطن أصحاب الحق الشرعى في وطنهم وبين الغاصب الدخيل والمستعمر الظالم ومن والاه وأعانه من الذين يعتمدون في بقائه على سحر المال عن يأكلون أموال وطنهم من اليد التي تقطر بالدم ، فيأكلون في بطونهم ناراً ويعيشون على النفاق والتهديد والاغراء . يجعلهم يده التي يبطش بها بالأحرار العاملين ، والمخلصين الأمنين ويسلط عليهم اساليبه الظالمة من سجن ونفى ووعيد وتشريد

وقد إصطفى الاستعمار أنصاره ممن لانت قلوبهم لجلال المناصب ولبريق الذهب ، فعاش هؤلاء عيشة النفاق ، وأضلهم الغرور ، فاعتصموا بأبراجهم ، وظنوا انهم في حصانة عن الشعب بالانجليز ، وفي رعاية من الغاصب عن الحساب والجزاء ، حساب التاريخ وجزاء الأوطان

وكما حاول الشعب أن يوجه الأمور ، وان يقاوم الغاصب كان هؤلاء الزعماء اليد التي يقتل بها الوطنية والخنجر الذي تمزق به المقاومة ، ولم يكن هؤلاء الزعماء الأذئاب من عمل خلال هذه السنين إلى إلقاء التصريحات التي تخدر الشعوب ، أو استغلال المواقف أو ارضاء سادتهم الانجليز

وقد انقاد الشعب ردحا من الزمن لهؤلاء ، فغلبته النزعة النفعية والرغبة المادية ، وغفل عن حقه وحرية ، وانتقلت أزاء ذلك الوطنية المجاهدة الى السياسة الحزبية وبما وراء هذه الحزبية من خصومة ومؤامرات ومناورات في الانتخابات والوزارات والمفاوضات

ولكن ذلك الحجاب السكثيف لم يطل بقاؤه فقد تنبه الناس إلى خصومهم وإلى ادناب هؤلاء الخصوم وعرفوا هؤلاء الآثمين الذين عجزوا خلال ربع قرن عن أن يحققوا للوطن أملا ، أو يقوموا بعمل إيجابى صحيح ، من خصومة صريحة أو مقاطعة صحيحة أو مقاومة كريمة أو مواجهة صادقة

هؤلاء الذين عجزت أنفسهم الضعيفة عن السكفاية الوطنية فوقفوا موقف العبيد وسلبوا تسليم الأذلاء وجروا وراء الفاسب وجعلوه سنادهم وظهيرهم

وتشكروا لهذا الشعب فلم يوجهوه ، وتناسوا حقه فلم يبينوه ، وجعلوا روحه التى تتوقد بغيرة وحماسة وتشتعل شوقا إلى حرية وكرامة

وقد عاش هؤلاء الزعماء على المطمع العاجل ، والعمل الهين ، فجعلوا الحكم هدفهم ، والمفاوضات وسيلتهم وأنسكروا كل ماعدا ذلك من مقاومة أو نضال أو جهاد ..

وقد علموا منذ اليوم الأول ان انجلترا غاصبة لا حق لها فى مصر ولا وجه شرعى لاحتلالها وأعلنها ملزما واضحة صريحة فى لقائه الأول مع المفاوضين سنة ١٩٢١ حيث قال لهم (اننا الآن فى مصر واضعون يدنا على كل شىء . وزيد أن تتخلى عنها فى مقابل شىء واحد هو أن يعترفوا بمركزنا فيه لأنه الآن فعلى وزيد أن يكون شرعيا مسندا إلى قوة عسكرية ، نحن نبحث عن مصر منذ أكثر من مائة سنة وهى الآن فى قبضتنا وزيد أن يكون مركزنا فيها شرعيا بقبولكم ،

وهكذا ظهرت النية الانجليزية المسممة وهكذا انكشف للزعماء ما تريده انجلترا ولكنهم ظلوا مع ذلك يسبرون فى التيار ، خصوما للوطن ، قاتلين لروحه ، مضللين له ، مفرطين فى حقه ، يساومون الانجليز لمصلحة الانجليز لا لمصلحة مصر ، وما كان الحق الأباغ الواضح فى الحرية والجلال فى حاجة إلى مساومة

وهكذا سعت انجلترا لتجعل احتلالها لمصر شرعيا وهكذا عمل زعمائنا على تحقيق هكذا المطمع الانجائزى الظالم فوقعوا معاهدة ٣٦

غدر الانجليز

وضع غدر الانجليز في كل خطوة وفي كل حركة وفي كل حالة بما لا يستدعي إقامة دليل أو سياق برهان ، في الوقت الذي عمل زعمائنا على بث روح الصداقة والمحالفة مع هذا الغاصب

سلب الانجليز حقوق مصر الشرعية منذ اليوم الأول لاحتلالهم ، سلبوا مصر ودستورها ومجلس نوابها واستبدلوه بمجلس شورى القوانين ، ثم الجمعية التشريعية

ثم حولوا تيار الوطنية الدافق بعد ثورة ١٩١٩ إلى مناورة سياسية بارعة ولما وضع الدستور تدخلوا في وضعه ونصوه وفرضوا سلطانهم عليه فرضا معيبا ظالما ووقفوا في وجه نصوص السودان ، وعينوا نقطا بالذات لم يجعلوا للجنة الدستور ولا الوزارة الحق في التعرض لها وقامت لأجل ذلك أزمات اودت بوزارتين وحاولوا أن يحولوا بينه وبين الحياة مرتين ومسخوه مرة ثالثة ...

وحاولوا طويلا ارغام المصريين على عقد محالفة عسكرية حتى إذا برزت نذر الحرب سنة ٣٦ أرغمت انجلترا الزعماء على أن يجتمعوا وفرضت عليهم معاهدة ٩٣٦ الظالمة الجائرة التي اعترفت بشرعية الاحتلال وقبلت وجود قوات دائمة عند قناة السويس وأباحت للجيش الانجليزي براً وبحراً وجواً استغلال المواثيق والتزمت بتقديم العتاد والمؤونة في أوقات الحرب ، وقد استغلت هذه المعاهدة اثناء الحرب استغلالا عجيبا وقد أملت هذه المعاهدة الظالمة اتفاق ١٨٩٩ الباطلة وأعانت على فصل السودان عن مصر وبسط يد الانجليز فيه وقد استطاع الانجليز بعد تصريح ٢٨ فبراير أن يعلنوا سياسة الحلفاء والعمل من وراء الستار على يد الزعماء الذين قبلوا التعاون والتفاهم وقبول الحكم والمفاوضة في ظل جيش الاحتلال وسلطان قصر الدوبارة وظهر في مصر هذا الفريق المنافق العجيب الذي يتنكر لتصريح ٢٨ فبراير ثم يقبل الحكم على أساسه والذي يقول عن الدستور أنه كتب بيد إنجليزية ووضعته لجنة الأشقياء فإذا أمكنهم هذا الدستور من ناصية الحكم قالوا انه أحدث الدساتير وأدعوا أمام الأمة أنهم يجاهدون في سبيل الوطن في الوقت الذي أطلقوا على الانجليز كلبة (الخصوم الشرفاء المعقولون) وفصلوا مسألة السودان عن مصر ثم جاءوا أخيراً تحت ضغط الوعي الوطني يطالبون بوحدة وادي النيل وظلوا يسخرون من كلبة الجلاء التي جعلها الوطنيون شعارهم حتى دمجهم التاريخ بأنها انها لم ترد مرة واحدة في بيان من بياناتهم حتى أرغمتهم اليقظة الوطنية على ترديدها .

ومنذ أعلنت الحرب الكبرى أخذ الانجليز يشردون (الوطنيين) وينفونهم إلى خارج القطر جزاء صراحتهم وتصميمهم وقد ظل د فريد ، يقاوم المرض والفقر والغربة حتى وصل به الداء إلى أشده ومع ذلك ظل يقول : اننا نعرف كيف نصبر على المسكاره ولكننا لانعرف التسليم في حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا .

ومن آثار هذا النضال بين مصر وانجلترا وهذه المقاومة بين طلاب الحق والحرية وعمال البغي

والاستبداد حادث دنشواى هذا الحدث لا يمكن أن ينسى ولا تنسى آثاره ، هذا الحدث الذى أشعل فى الوطنية المصرية روح اليقظة والمواجهة حتى بلغت أشدها فى حركات المقاطعة و ارغام الزعماء بالاضراب عن الحكم فقد ظلت مصر بدون وزارة من ٢٤-١٢-٢١ إلى ١-٣-١٩٢٢ حتى اضطرت انجلترا إلى اصدار تصريح ٢٨ فبراير

وبرز هذا المعنى بوضوح فى مقاطعة لجنة ملز التى وصلت إلى مصر فى ١٤-١١-١٩١٩ واضطرت إلى العودة دون أن يتقدم لها مصرى واحد ، وقد قبلت منذ وصولها بالاضطرابات والمظاهرات مما اضطر سعيد باشا إلى الاستقالة فى ١٥-١١-١٩١٩ وقد اعترف ملز بالروح العدائية التى قبلت بها اللجنة وبلغ ما تلقتة من الاحتجاجات ١١٣١ برقية .

بعد هذا كله استطاع الانجليز أن يقتلوا روح الثورة وأن يضعوا ثمرتها وأن يخلقوا جواً جديداً ، هو اسوأ مخبراً وان ظن بعض الناس أنه أحسن مظهراً فقد اختفى الانجليز وراء المصريين وحركوهم كالدمى فوق المسرح وظن الناس أن المصرى هو الذى يعمل فى الوقت الذى كان هذا المصرى لا يتحرك حركة إلا بأمر ولا يقول كلمة إلا بأذن ، أولئك هم عبيد الاستعمار ، عبيد الدنيا ، عبيد المناصب ، وتعس عبد الدينار والمناصب .

سياسة الاحتلال

قضت انجلترا منذ اليوم الأول لاحتلالها مصر على كل قوة وكل نشاط فيها ، وارغمتها على إخلاء السودان ، ثم دفعت بها إلى مناورة العودة وكتبها باتفاقية ١٨٩٩ الباطلة التى وضعت كل السلطة فى السودان فى يد الحاكم العام الانجليزى والزمت مصر بالارتباط معها بمعاهدة تحالف عسكرى وقتلت روح المقاومة الوطنية وأحلت روح الاذعان والتسليم والرضا بالأمر الواقع بدلاً منها وكتبنت الرأى العام وأهدرت الحريات وقمعت الحركة الوطنية برصاص الجيش ، وسلسكت سياسة فرض الحكام بسلطة الدبابات .

واعانت الحكم الاستبدادى على الانقلابات غير الدستورية ومزقت وحدة الأمة ووقعت الخصومة والبغضاء بين الزعماء وبين الشعب ووضعت العيون والارصاد على الأحرار والمجاهدين وهددت وتوعدت واغرت وعملت على التفرقة والخصومة بين الشعب والحكومة وبين العرش والحكومة وبين الطوائف والناس بعضهم البعض .

وليس لانجلترا نظام ثابت او وضع محدد ، فانما هى تسير وفق هوى الاستعمار فتقر وضعاً فى وجهة ولا تقبله فى جهة أخرى ، وبينما يصرح (ييفن) فيما يتعلق بالدردينيل فيقول (ان الحكومة الانجليزية تشعر بأن الحكومة التركية هى وحدها التى يجب أن تكون مسئولة عن الدفاع والاشراف على المضائق) نراها لا تنطبق هذا القول فى مصر وتصر على أنها باقية لحراسة قناة السويس .

وبينما تنشئ هي في السودان حزبا لمناصرة الانفصال تندد بسلوك روسيا في إيران بإنشاء حزب (توده) في ازربيجان .

وكما تدخل الانجليز في وضع الدستور تدخلوا في إقامة هذا النظام الدستوري نفسه ، فاعطوا انفسهم الحق في أن يحولوا بين بعض الوطنيين وبين البرلمان .

ومضوا في إملاء سيطرتهم على الحكومات في جهر وعلاية حتى تكاد لا تتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الأمة إلى الآن لم تفرض ارادتها في تشكيل وزارة معينة ، ومعنى ذلك ان كل وزارة تقوم إنما تقوم بتأييد الانجليز ورضائهم ولذلك فهي لا تستطيع الجهر مطلقا بعداء الانجليز او تقف منهم موقفا قاطعا صريحا .

واستطاع - بذلك الانجليز املاء سيطرتهم في قلب الوزارات عند ما يستدعي الأمر ذلك ، وهم يقذفون الوزارة أحيانا في - اشد اوقات جلوتها - بتصريح ما فيكون هذا ارتطاما لها وتقويضا تخر على اثره على قدمها مهيضة الجناح .

وهكذا قامت الوزارات المتوالية بين نصائح جرانفيل وتهديدات كرومر وانذارات اللنبي ودبابات كليرن .

وليس بعيد تصريحات تشرشل وروزفلت وهور وهدلستون التي قوضت الوزارات المتوالية .

ولم يقف الانجليز من أنصارهم ، واذنابهم موقف المجاملة بل كانوا في اشد اوقات مجدهم يصفونهم وصف الواقع الحق دون تردد فيقول ملنر عن الحزب الذي فاوضه سنة ١٩٢٠ (هيئة مؤلفة من اعضاء اكثرهم ليسوا من الغلادة المتطرفين بل اصلهم من حزب الأمة القديم الذي كان غرضه التقدم الدستوري تدريجيا بخلاف الحزب الوطني الذي هو حزب الثورة ومعارض الانجليز) ونحن نعتمد هذا النص في التعريف بزعماء ما بعد الثورة .

غدر الانجليز

ومنذ اليوم الأول ونية « الغدر » واضحة وضوحا عجيبا في كل تصرفات إنجلترا مع مصر فهي قد اشترت أسهم قناة السويس غدرأ وخالفت بشرائها أبسط قوانين الاقتصاد إذا أن الأسهم كانت معروضة الافراد وليس للدول ولكن جريدة التيمس في ٢٦ - ١١ - ١٨٧٥ تكشف عن هذا الغدر بوضوح فتقول (أن من المستحيل أن نفكر في شراء أسهم قناة السويس منفصلا عن علاقة إنجلترا المستقبلية بمصر)

وفي تصريح (غلاستون) في مجلس العموم الانجليزي في سبتمبر ١٨٧٧ يتبين هذا الغدر بجلاء وضوح حيث يقول : (إذا توطدت أقدامنا في مصر تكون هذه المستعمرة الأولى بوجه التحقيق بمثابة ذريعة لتأسيس لإمبراطورية شاسعة في أفريقيا الشمالية)

ثم يتجلى هذا الغدر في وضوح عندما حرض الانجليز على قتل (اسماعيل باشا) صديق المفتش لأنه كان يدافع عن مصر ويحاول الحد من سلطان الرقابة الشائبة ومؤامرات الدائنين التي بينا طرفا منها في أول هذا الفصل ، وقد أنعم على قاتله باقرب (سير) وكشفت التيمس نقابها بعد قتله في غدر مكشوف فقالت (لقد كان اسماعيل صديق زعيم حزب يقاوم النفوذ الأوربي وكل تقدم للمدينة في البلاد أن سقوط المفتش ليعد من أقوى دواعي النجاح) .

ويظهر هذا الغدر في صورته الصارخة حين تدفع إنجلترا بعض الاجانب إلى إثارة الاضطرابات وتأجيج الفتنة وتعمل على تسليحهم بحاجب الأسلحة من الأسطول وتوزيعها عليهم وتدفع هذا المالمطى - شقيق خادم القنصل الانجليزى - على الاشتباك مع المصرى وإطلاق الرصاص من النوافذ والشرفات وإحداث مذبحه الاسكندرية توطئة للاعتذار للدول باختلال الأمن في مصر وخطره على حياة الأجانب وأموال الدائنين ولا يلبث هذا الغدر أن يحمل مصر وهى التى كانت ضحية فى المذبحة ؛ ولم يكن لها يد فى اقرار الاثم على دفع تعويضات بلغت ٢٥٠.٠٠٠ ر. جنيه وسددتها الخزينة المصرية المشقة ووضح هذا الغدر فى إجلاء مصر عن السودان ثم فى العودة مع الانجليز اليها ليكون ذلك وسيلة إلى تشويه الحقائق ورى مصر بصفة الدولة المحتلة أو المستعمرة ثم يتجلى هذا الغدر فى وضوح باخراج المصريين من السودان سنة ١٩٢٤ وإرغام مصر على دفع نصف مليون من الجنيهات إلى حرم سيرلى ستاك تهبها للجماعات التبشيرية فى جنوب السوادان فتحارب بها مصر والاسلام

المقاومة

ولن ننسى أن نذكر (المقاومة الوطنية) التى لم تتوقف أبداً بالرغم من هذه المحاولات الآتية لتطعيمها بالضعف والركود

فإن ثورة عراقى هى لون من ألوان المقاومة للاستبداد المحلى والتدخل الأجنبى ، وكذلك موقف شريف باشا هو من المواقف القوية البارزة التى لاتنسى وكذا جهاد الحزب الوطنى ورجاله مصطفى وفريد وما احتملا فى سبيل هذا الجهاد من آلام أزججت د كرومر ، الطاغية فقاوم الحركة الدفاقة المشتعلة (بحرب الأمة) و ثورة ١٩١٩ التى قادها الشعب دون أن يكون لرعيم عليها فضل ، بل كان لها الفضل على كل زعيم هى حركة قوية جبارة أزججت إنجلترا واهاجت الاستعمار واضطرت إنجلترا تحت ضغط تيارها القوى أن ترسل لجنة ملنر وأن تصدر تصريح ٢٨ فبراير فقاطع المصريون لجنة ملنر وقاموها وحالوا بين الوزراء وبين قبول الحكم وقتا طويلا وحركات النضال سنة ٣٥ وسنة ٤٦ هى حركات قوية صادقة كان للاولى أثرها فى إعادة الدستور وللأخرى فضلها فى مقاومة مشروع (صدق بيفن) وإعلان وحدة وادى النيل إعلانا رسميا بلغ قوته حين قال اللسان الرسمى (بالجلاء عن وادى النيل) باعتباره مطلب مصر الاول والآخر

قناة السويس والديون

أغرى « دلسبس » ، والى مصر « سعيد » بإنشاء القناة فانخدع له فكانت منذ إنشائها إلى الآن مصدر الخطر وسبب البلاء ووحجة الاحتلال وأم النضال بين إنجلترا ومصر .

فقد استدعت القناة سعيداً وإسماعيلاً للاستدانة حتى كان ذلك مصدر اضطراب مالى بعيد الأثر اتخذت منه الدول الطامعة سبباً في التدخل في إدارة مصر .

ونفضت مصر يدها تحت ضغط الحالة الاقتصادية والأزمة المالية من أسهمها فباعتها بيع البخس لانجلترا بأقل من ثمنها الفعلى ، كما أنها اضطرت أيضاً إلى بيع حقها في الاستيلاء على ١٥ ٪ من صافي أرباح القناة إلى شركة فرنسية بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه وقد بلغ قيمة هذا الحق سنة ١٩٢٩ ٢٠ مليون جنيه فضلاً عن أنه يرجع ٨٦٩ ألف جنيه في العام .

وفقدت مصر في حفر القناة الآلاف من رجالها ماتوا نتيجة الحمى والجوع ورداءة الجو ، وضاع على البقية الباقية من الأحياء أجورهم التي أكلها المتعهدون فعملوا فيها سخرة ، وكانوا حوالى ٢١ ألف عامل لحقهم الكثير من الظلم والحسف ، وأصابهم ألوان مبرحة من العنت والارهاق إلى حد أنهم كانوا يضربون بالكرابيج .

وحاول اسماعيل رد التبعة النبيلة إلى الحكومة المصرية ، وكانت من ضمن أرض القناة في شروط سعيد فطوب بدفع تعويض قدره ٨٤ مليون فرنك وقد بلغت تكاليف القناة ١٨ مليون جنيه احتملت مصر منها ١٦٨٠٠٠٠٠ في الوقت الذى ضيعت إنجلترا فيه كل حق لمصر في أرباحها أو حصة في أسهمها .

ومنذ أن انتهى حفر القناة في ١٥-٨-١٨٦٩ بدأت إنجلترا تعمل على إثارة الأزمات والمؤامرات حول مركز مصر المالى مما استدعى إنشاء المراقبة الثنائية وصندوق الدين ولجنة التصفية .

وسعت الشركة في مد أجل قناة السويس ٤٠ سنة أخرى لينتهى في ٢٠٠٨ بدلا من سنة ١٩٦٨ وكانت فكرة إنجليزية قصد بها إبقاء النفوذ الانجليزى في مصر إلى أبعد وقت ممكن وقد وضع خطر هذا المشروع للرأى العام ورفض رفضا باتا وقدر الغبن الذى يقع على مصر من هذا الامتياز بمبلغ ٢٤٠ ألف جنيه وقناة السويس بعد ذلك - مصرية لحما ودما ، حفرتها الأيدى المصرية وبأموال المصريين وفي أرضهم وهم أولى الناس وأصلحهم لحمايتها والدفاع عنها وقد قاموا بذلك إبان الحرب الأخيرة خير قيام .

وهكذا ترون أن مكان القناة في تاريخنا المصرى مكان بارز ، قد حفر بالدم والنار .

انجلترا والقناة

عندما بدأت مصر تنشيء القناة كانت إنجلترا من أكبر خصوم هذا المشروع ، وقد حملت عليه حملة شعواء في صحفها ، وعارضته معارضة شديدة ، فلما أصبح حقيقة نافذة عمدت إنجلترا إلى الاستيلاء على أكبر قدر من الأسهم وحرصت الدائنين على التدخل في شئون مصر وألتهم على الحكومة المصرية واعتبرت هذه الديون تكأة لتدخلها الفعلي .

وقد انتقل نصيب مصر من الأسهم (١٧٦٢.٠٦) إليها في ساعة العسرة وفي حالة الضغط والارهاق، إذ اشترتها سرا بثمان قدره ١٠٠ مليون فرنك (٤ ملايين جنيه) ، وقد اشترها دزراتيلي وزير خارجية إنجلترا مستعينا ببيت (روتشيلد) في ٢٥ - ١١ - ١٨٧٢ وقد بلغ سعرها في البورصة ٣٥ مليون جنيه .

وكتبت جريدة التيمس عن هذه الصفقة يقول (إن لجمهور هنا وفي البلاد الأخرى سينظر إلى هذا العمل العظيم . الذي قامت به الحكومة من وجهته السياسية لآمن وجهته التجارية وهو بمثابة مظاهرة . إنه لإعلان عن نيات معينة والمبادرة بالعمل على تحقيقها . فمن المستحيل أن نفرق في أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات إنجلترا المقبلة بمصر ، أو بين مصير مصر وما يحيط بالامبراطورية العثمانية من المخاوف)

وفي هذا القول أبلغ دليل على نية الغدر التي بيئتها إنجلترا لمصر منذ ١٨٠٧ والتي تأكدت في سبتمبر ١٨٧٥ بشراء أسهم قناة السويس والتي كشفت عنها في وضوح تصريح غلادستون في سبتمبر سنة ١٨٧٧ .

وبعد أن اشترت إنجلترا أسهم القناة أرسلت إلى مصر بعثة لفحص ديونها المالية على رأسها (ستيفن كيف) وانتهى أمرها بإصدار قانون توحيد الدين وإنشاء صندوق خاص بعملياته ، واختير أعضاء من الأجانب ممثلين للدائنين ، ثم أنشئ منصب المراقبين وبذلك أصبحت الحكومة المصرية في يد الصندوق والدائنين .

وهكذا اتخذت إنجلترا ديون مصر وسيلة إلى السيطرة عليها والتدخل في شئونها وفرض أمرها بما انتهى بها إلى احتلال مصر وما دمننا بصدد قناة السويس والديون فإنه يجب أن نثبت هنا أنه ظهر بوضوح أن ميزانيات مصر أيام الاحتلال كان بها عدة ملايين فائضة عن المصروفات وكان في الامكان لو حسنت النيات - أن تسدد من دين مصر ولكن الانجليز حالوا دون ذلك رغبة في البقاء وتمكينهم في الاحتلال وهذا مايقوله الدكتور قرمان في كتابه (مصر وإرهاقها سنة ١٩٠٨) : إن دين مصر (١٩٠٨) كما هو منذ خمس وعشرين سنة ولا غرو فقد عمدت بريطانيا إلى الوقوف في سبيل وفاء هذا الدين كله أو بعضه فقد كان الدين من بين الأسباب المنتحلة لاحتلال إنجلترا لمصر والبقاء فيها . هـ

وقد كان مشروطاً أن تبقى للقناة حيدتها ولكن إنجلترا الغادرة خرقت هذا الحيد سنة ١٨٨٢ عند ماهاجت عرابي

ثم بدأت إنجلترا تحرك الدائنين ليكون ذلك وسيلة إلى زيادة تدخلها وقد كان لذلك أثره في السوق المالية في لندن مما أشارت إليه (التيمس) في حينه حيث قالت : (استولى الذعر اليوم على سوق السندات الأجنبية ولم تعلق نشرة البنك العثماني إلا في منتصف النهار وإذ ذاك تدهورت السندات التركية وأعقبتها السندات المصرية تدهوراً هائلاً كان نتيجة إحداث ذعر شديد ، ولم يشاهد أى تحسن عند إقفال البورصة بل استمرت السندات المصرية في تدهورها إلى ما بعد ساعات العمل وهكذا اتخذت إنجلترا السندات المالية وسيلة إلى المؤامرة (١) وأداة الاعتداء واستنتج ذلك إشارة الانجليز على مصر بإنشاء مراقبة للحالة المالية المصرية يشرف عليها ماليين أكفاء ولما تقرر نظام الرقابة الثنائية وضع الرقيب الانجليزي (أفلين بارنج) الذي أصبح من بعد (كرومر) يده على كل شىء ، وخوات للرقابة سلطة ضخمة اتسع بها النفوذ الأوروبي وأبيحت موارد البلاد ومرافقها للباينين الأوربيين وأنشئ البنك العقاري في ١٥ - ١٢ - ١٨٨٠ وشركة تكرير السكر

وقد أشارت الرقابة إلى إنقاص الجيش بحجة توفير النفقات ومرمى هذا هو إضعاف القوة المصرية توطئة للمؤامرة التي كانت إنجلترا بسبيل تدبيرها بعد أن تمكنت من قناة السويس ومن السيطرة على الآداة الحكومية وقد أنقص الجيش إلى ١٢ ألف

وقد حاول إسماعيل باشا المفتش ناظر المالية الوقوف في وجه تيار الدائنين اليهود الذين أعادوا المؤامرة لخنق مصر وخرابها فعملوا بكل وسيلة إلى إسقاطه

وحرضت إنجلترا على اغتياله وتنفس الصعداء بموته وقد اعتبرته عدو الإصلاح وكتب مراسل التيمس يقول (إن إبعاد المفتش يعتبر هنا بمثابة خاتمة نظام عتيق فإن الباشا كان ديدنه النظر بعين السخط إلى إردباد النفوذ الأوربي ومقاومة كل تقدم في البلاد) وقد أخلى سقوطه الجو فعلاً للنفوذ الغاصب لاتمام المؤامرة الغادرة

وقد ضغطت الرقابة على المالية المصرية ضغطاً عجيباً لتظهرها بمظهر الاضطراب وهذا بيان بعدد الموظفين الأجانب في مصر

سنة	١٨٧٠	١٦٠	أجنبي
،	١٨٧١	٣٦١	،
،	١٨٧٦	٤٨٠	،
،	١٨٧٧	٥٥٦	،
،	١٨٧٨	٦٨٧	،

(١) وصفا في هذه البيانات إلى كتاب مصر قبل الاحتلال وبعده ترجمة الاستاذ على شكرى

وكتبت التيمس في ٢٥ - ١٢ - ١٨٧٨ تقول :
(تبلغ مرتباتهم - أى الموظفين الأجانب - ٦٠ ألف جنيه سنوياً في حين أن مئات المستخدمين الوطنيين
لا يستطيعون أن يحصلوا على مرتباتهم الزهيدة التي تدفع لهم منذ عام أو أكثر)
وكتبت التيمس في ٢٣ - ١ - سنة ١٨٧٩ تقول :

« إن معظم كبار الموظفين هم من الأجانب الذين تصرف لهم المرتبات الضخمة لتهدئة حنينهم إلى الوطن،
وقد حشرت المنافسات الدولية هنا ثلاثة أو أربعة من الموظفين في عمل لا تحتاج تأديته إلا إلى شخص واحد،
ولقد كانت نتيجة هذه التجارب في طريق الحكم أن أثقل كاهل مصر بعدد من الموظفين ذوي مرتبات ضخمة
لا عمل لهم إلا قبض المرتب »

وهكذا كان عمل الدائنين هو عمل المتآمرين ، الذين ياحون بالطلبات الدائمة ، والاقتراحات الكثيرة وترفع
الأسهم في البورصات بوسائل عجيبة وهمية لاحقيقة لها ، والتواطؤ والتصميم وسبق الاصرار على خراب مصر
وقد أرغم الدائنون مصر على تشكيل وزارة أوربية شكلت تحت رئاسة نوبار بوزيرين إنجليزى للمالية
وفرنسى للأشغال وبهذا سيطرت أوربا على مصر سيطرة فعلية

لماذا أنشئت هذه الوزارة ؟ هذا ما يجيب عنه السير جورج كامبل في مجلس العموم سنة ١٨٧٩ (أن تلك
المحاولة التي كان المراد بها في الظاهر إدخال الحكم الصالح في مصر لم تكن سوى لعبة مالية عظيمة لرفع الأسهم
المصرية وليتمكن أولئك الذين لهم فيها نصيب من أن ينثروها على الجمهور

وقد أدى هذا الارتباك المالى إلى زيادة الضغط على المزارعين في تحصيل الضرائب مما أدى (إلى (١) موت
الفلاحين في منعطقات الطريق وخراب مساحات واسعة من الأراضى واقفارها من جراء الأعباء المالية الفادحة
وبيع الزارعين لدوابهم والنساء لحليهم وتهافت المرابين على دور الرهن وملئها بسنداتهم وازدحام المحاكم بقضايا
نزع الملكية) .

ولم تستطع إنجلترا أن تخفى غدرها حيث يصرح كبير مسئول فيها : (إن أوربا لا يعينها صلاح الحكم في مصر
أو فسادها إذا سددت السكوبونات في مواعيدها) وقد رفع قنصل السويد في القاهرة إلى حكومته تقريراً مسهباً
وصف فيه هذه الحالة بقوله : إن الطريقة التي اتبعت إلى الآن في تنظيم المسألة المالية تشبه الطريقة التي يتبعها
الإنسان مع مدين عادى ، بصرف النظر عما إذا كانت ديون مصر لمصلحة البلاد وعما إذا كان يوجد من
يستحق العطف بين الذين أقرضوا هذه النقود بالربا الفاحش أو استفادوا فوائد عظيمة على حسابها ، فإن مصر
يجب عليها على كل حال أن تنفذ تعهداتها ولكن ثمة بونا شامعاً بين هذا وبين الزعم بأن الأهالي والبلاد
يجب تخريبها تخريباً تاماً لارضاء شهوات الدائنين ، ومن الصعب أن يعتبر الإنسان الأهالي متشابهين مع
الحكومة بحيث يصح أنقال كواهل الفلاحين بالضرائب الفادحة وتخويل الدائنين حق بيع الفلاحين وممتلكاتهم
لقضاء لباياتهم ، .

وقد عرفت فترة (١) المراقبة الثنائية ، بالمضاربات التي تعجز الحصر وبالمقاولات الصورية فيما بين الحكومة وبين أفراد المقاولين ومن ذلك أن شركة انجليزية حصلت برغم ارتفاع الأجر الذي طلبته على اتفاق لرى مديرية البحيرة بالآلات الرافعة مع وجود قناطر محمد علي . ومنه أيضا بيع الملح احتكارا وقصره على شركة انجليزية

ومن هذا يتضح بجلاء كيف كانت انجلترا تبدد أموال الخزانة حتى لا تبقى فيها على أى فائض يمكن تسديده من الديون فضلا عن أنها تعمل على إيجاد جو ملبد مضطرب يعجز الخزانة عن تسديد أرباح الاسهم وفوائد السندات

وهذا (شاهد عيان) من الغربيين يصف حالة مصر فيقول : (ان مصر الان اشبه بضيفة كبيرة يدبرها الدائنون . واسكن مع الفارق العظيم وهو انه بينما يدرك الدائنون عادة أهمية تنمية موارد الضيفة للحصول على ديونهم ، تراهم في هذه الحالة لاعم للواحد منهم إلا الصرف والامتصاص كأنهم نسوا أنه من المستحيل أن يحصد الانسان إذا لم يزرع)

وهاهو المسيودي مارتن القانوني الدولي الشهير يصف المراقبة الثنائية فيقول (لقد كانت المراقبة الثنائية (الانجليزية الفرنسية) عملا سياسيا أريد به خصيصا إيقاع الخلل في دولاب الحكومة المصرية ووقف كل إصلاح إداري وتشريعي يحتمل أن يمس بوجه من الوجوه مصالح الدائنين الأجانب) هذا فضلا عن أن النزلاء الأوربيين كانوا يعفون من الضرائب المقررة وقد نصت الامتيازات على عدم تسليفهم بدفع ضريبة ما إلا بإذن من حكوماتهم

ومن هذا البيان الواضح السريع يتبين كيف تمت الحلقة الأولى من مؤامرة احتلال مصر وتجريدها من حريتها وتألب الدول الغربية واليهود الدائنين عليها تألبا عجيبا لم يسبق له مثيل في تاريخ دولة ما وهكذا تتبين غدر انجلترا ، وتتبين بوضوح كيف ظلت انجلترا تمتص دماء مصر حتى سقطت من الأعباء ، وأنها عجزت عن أن تقاومها بالقوة أو تحتلها بأى وجه شرعى فعملت على خلق هذه المؤامرة الأثمة العجيبة وتمسكنت من مصر عن طريق الغش والتآمر .

الاحتلال

« ليس لانجلترا أعداء دائمين وأعداء دائمين ولكن مصالح دائمة » . (بالمرستون)

كتب جريدة التيمس لسال حال الاستعمار الانجليزي وسفيرته في كل أرض في ١٩ - ٤ - ١٧٧٨ قبل احتلال مصر بخمس سنوات تقول :

(مهما كان ماجريات الأحوال في المستقبل المجهول فليس من المبالغة في شيء أن يقال أن مصر ستبقى إلى أمد طويل مركزا له أهمية سياسية كبرى . ولسنا وحدنا الأمة التي تتطلع إلى وادي النيل إذلو كانت الحال كذلك لسهل حل المسألة المصرية . فمن بدء حكم محمد علي حاول الفرنسيون أن يكون لهم النفوذ التام في مصر ولذلك لا يستبعد أن ينظروا بعين الغيرة إلى كل خطوة نخطوها عليها مسحة الرغبة في أن تكون لنا السيطرة على سياسة مصر) .

وفي ٢٦ - ٤ - ١٨٧٨ تقول التيمس أيضا :

(إن فكرة الحماية الفرنسية الانجليزية على مصر لا تقابل بارتياح فلقد جربنا الادارة الثنائية طويلا وأبنا كيف كان التنافس بين صاحبي الاشراف حائلا دون التقدم (التقدم بلغة الاستعمار هو الالتهام) حتى أننا لنشك كثيرا في إمكان استقامة العمل في ظل هذا الاشتراك ولقد تساءل الناس عن حقيقة مصلحة فرنسا في مصر . نعم إن أحد المصارف في باريس قد تورط في أراض مصر ، ولكن خمس سنوات في ظل الحماية الانجليزية كفيلة باخراجه من هذه الورطة) .

أول ما يظهر للقارى العادى وليس للسياسى الفاحص من هذا هونية السوء وسبق الأصرار وانطواء النفس الاستعمارية على رغبة الغدر ، والاستعداد والتأهب والترقب لهذه المحاولة ولكن الظالم الطاغية كرومر يأبى إلا أن يخدعنا حين يقول في كتابه مصر الحديثة ج ١ ص ١٣٠ (إن السياسة البريطانية حاولت جاهدة أن تلتقي عن عاتقها عبء المشكلة المصرية ولكن كانت الظروف من القوة بحيث لا يمكن وقف تيارها بالعمل السياسى فصر كان مقدراً لها أن تقع في يد الانجليز) .

بدأت أحداث الاحتلال ومسبباته على الوجه الآتى :

٩ سبتمبر ١٨٨١	عراى مع الجيش في ساحة عابدين
٢ يناير ١٨٨٢	مذكرة الدستور
١٥ مايو ١٨٨٢	وصول الأسطول
١١ يونيو ١٨٨٢	مذبحة الاسكندرية
١١ يولييه ١٨٨٢	حزب الاسكندرية
١٤ سبتمبر ١٨٨٢	دخول القاهرة

٩ سبتمبر ١٨٨١

كان الشعور الوطني قد استفاق إلى مواجهة هذا التيار الجارف، وكان الجيش بقيادة عرابي هو أول من حمل عبء الكفاح

وكان يوم ٩ يوما سبتمبر مشهوداً قام فيه عرابي على رأس الجيش بمطيطا جواده مستلا سيفه متقدماً إلى ساحة عابدين ولما واجه الخديو أمره بالترجل وإغمد سيفه ففعل وتقدم مطالباً :

باسقاط الوزارة القائمة ، وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وحاول أحد المستشارين الانجليز أن يقنع الخديو بأن يضرب عنق عرابي ولكن الخديو لم يفعل وتوسطت الرسل بين الخديو وبين عرابي وعرابي مصر على طلباته متصلب في الاصرار عليها حتى وعده الخديو بتنفيذ طلباته فأسقط وزارة رياض في الحال وشكلت وزارة شريف

قال الخديو لعرابي : كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها وأنا خديو البلد وقد ورثت هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا . . .

قال عرابي : خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراناً ولا عبيداً ولا نورث بعد اليوم . وقال أوكن كلفن المستشار الانجليزي للخديو : ماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب فرد عليه عرابي في لباقة فوتت عليه قصده الآثم : هذه كلمة لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط ومنذ ذلك اليوم بدأت انجلترا تحرض على توسيع شقة الخلاف بين العرايين والخديو فتؤيد العرايين باذنائها المدنيين وعلى رأسهم « بلنت » وتؤيد الخديو بزعمائها الرسميين وعلى رأسهم أوكن كلفن

٢ يناير ١٨٨٢

قدم شريف باشا مذكرته المعروفة بوضع الدستور فالتخذت انجلترا منها تكأة للتدخل الرسمي وقدمت مذكرتها بالاشتراك مع فرنسا تعترض فيها على وضع الدستور وتدعى حق القوامة والرقابة على مصر وما جاء فيها : « والحكومتان متفقتان اتفاقاً وطيداً على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي تهدد النظام القائم في مصر ولا يخامرهما شك في أن الجهر بعزمهما في هذا الصدد سيكون له أثره في اتقاء الاخطار التي يمكن أن تهدف لها حكومة الخديو ،

وقد قبلت المذكرة بالسخط وتم تشكيل مجلس النواب فاتبعها بمذكرة أخرى في ٢٦ - ١ - ١٨٨٢ تطلب فيها عدم تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وقد رفضتها الوزارة القائمة إذ ذاك واستقال رئيسها احتجاجاً عليها .

١٥ مايو سنة ١٨٨٢

حدثت بعد ذلك مؤامرة الضباط الجراكسة لاغتيال عرابي وحكم عليهم بالانفى المؤبد إلى أعلى السودان وتجريدهم من الرتب العسكرية والنياشين وعلى رأسهم (عثمان رفقي) فلما رفع الحكم إلى الخديوى للتصديق عليه رفض وامتنع عن اقراره فوقع على أثر ذلك الخلاف بينه وبين الوزارة (البارودى) وحاولت الحكومة دعوة مجلس النواب لتحكيمه فرفض الخديوى واتخذت فرنسا وانجلترا هذا الخلاف بين الحكومة والخديوى تعلقة لها فأرسلت أسطوليهما إلى مصر فى ١٥-٥-١٨٨٢ إذ عدت هذه حالة ثورة تستدعى التدخل المسلح وأذاعت على أثر وصول الأسطول بياناً جاء فيه : (إن وصول هذا الأسطول لا يكدر علائق الحكومتين وإنما يجىء بصفة ودية وبطريق المسالمة .

ثم قدمت الحكومتان مذكرة أخرى فى ٢٥-٥ مغايرة فى لهجتها لما جاء فى هذه تماماً ، تظهر منها صورة الغدر المدبر ، وقد نحتنا فيها نجواً تهديدياً عنيفاً طالبنا فيها بأقالة البارودى واخراج عرابي من مصر .

١١ يونيه ١٨٨٢

حاصت انجلترا مذبة الإسكندرية فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ فكهربت الجو فى مصر وأثارت الفتن . وفى ظل الأسطول وتأثيره وقعت المذبحة التى هيم لها هذا المسالطى الذى أثبت التحقيق أنه شقيق خادم القنصل الانجليزى .

وعند ما وصل الأسطول اعتقد الأجانب أن هذا نذير بثورة فهاجروا إلى الاسكندرية ليكونوا فى حماية الأسطول وأذاعت انجلترا ذلك وأكده عملياً بأن نقلت الأسلحة التى حملها الأسطول إلى القنصلية ووزعتها على الأجانب .

فما أن وقع الحادث حتى كانت القذائف تنطلق من النوافذ دون وعى أو حساب مما يدل على استعداد مهيأ

والواقع أن إنجلترا كان لديها (سبق إصرار) لاشك فيه على ضرب الاسكندرية واحتلالها وقد أحكمت هذه المؤامرة إحكاماً عجيباً ، بل لقد عملت على عقد مؤتمر الآستانة لبحث المشكلة المصرية لتجعل ستاراً يحول دون البحث فيما تعده بعض الوقت .

وقد عقد المؤتمر فى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ ووقع المؤتمر فى الجلسة الثانية (قانون النزاهة) الذى تتعهد فيه الحكومات بأنها لا تريد أن تستأثر لأنفسها ولرعاياها بأى امتياز أرضى أو تجارى فى مصر ، وأن كل اتفاق يحصل لا يبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر - كان يحدث هذا فى الوقت الذى كانت انجلترا فيه تعد عدتها لاحتلال مصر بعد توقيعه بأسبوعين . كما حدث بالفعل

وقد عرضت إيطاليا قراراً تطالب فيه (بالامتناع عن التدخل المنفرد في مصر مادام المؤتمر منعقدا)
فألح مندوب إنجلترا على وضع تحفظ لهذا القرار جاء فيه (فيما عدا الحالات القهرية) .
وكتب (دوفرين) إلى دولته يقول (إننا في الواقع منذ أن عدل الاقتراح هذا التعديل التام لم نعد
نعتبر للاقتراح قيمة كبيرة) .
وهكذا استغلت إنجلترا هذا التحفظ بالحالات القهرية وضربت مصر وسخرت بالمؤتمر والمؤتمرين .

١١ يولييه سنة ١٨٨٢

تعلل سيمور لضرب الاسكندرية بعلل واهية لا يقرها التاريخ حين يحكم في الأمور ، ولا تعتبر في نظره
عاملا من عوامل الهجوم على بلد آمن ك مصر .

تعلل (سيمور) قائد الأسطول الإنجليزي بأن هناك تحصينات تجرى في قلاع الإسكندرية وطوايبها
وطالب بإيقافها وأرسل بذلك انذاره الأول بناء على تعليمات الأيرالية البريطانية التي جاء فيها : « امنعوا
كل محاولة يراد بها غلق ميناء الاسكندرية وإذا بوشر إعادة العمل بالحصون أو نصب فيها مدافع جديدة
فاخبروا قائدها العسكري أن لديكم أوامر بالحيولة دون ذلك وإذا لم يوقف العمل في الحال فدمروا الحصون
واسكتوا مدافعها » .

وبناء على هذا أرسل (سيمور) إلى قائد الاسكندرية في ٦ يولييه يقول: (علمت من طريق رسمي أن
مدفعين جديدين نصبوا أمس على خطوط الدفاع المشرفة على البحر وان بعض استعدادات حربية على
وشك التمام في واجهة الاسكندرية الشمالية ، والمقصود منها تهديد الأسطول الذي بقيادتي فيجب على
والحالة هذه أن أبلغكم بأنكم إن لم تأمروا بالاقلاع عن هذه الأعمال أو تكونوا قد أمرتم بالاقلاع
عنها فإن من واجبي ضرب الحصون التي يجرى فيها البناء » .

فرد عليه قائد الاسكندرية : « أؤكد لكم ان الأخبار المذكورة عارية عن الصحة وانها مثل خبر التهديد
بسد ميناء الاسكندرية الذي اتصل بكم وتحققتم كذبه » .

ولكن (سيمور) استمر ماضيا في طريقه غير عابئ بالحق ولا بالعدالة .

وقد أرسل يوم ١٠ إلى قائد الاسكندرية يقول : (نظراً لحدوث استعدادات حربية آخذة في
الازدياد وحيث انها موجهة بالطبع إلى الأسطول الذي هو تحت قيادتي ، فقد عقدت العزم على أن
أنفذ غداً (١١) الجارى عند شروق الشمس العمل الذي أعربت لكم عنه في خطابي يوم ٦ إن
لم تسلبوا إلى قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة على برزخ رأس التين وعلى ساحل ميناء الاسكندرية
لنزع التسليح بها ،

وقد رد عليه قائد الاسكندرية في اليوم نفسه فقال :

« لم تعمل مصر عملاً يقتضى إرسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة العسكرية أى عمل يسبغ مطالب الأدميرال ، إلا بعض إصلاحات ضرورية فى أبنية قديمة ، والحصون الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا فنحن بل من الواجب علينا أن نتخذ كل عدة لمقاومة كل عدو مباغت يقوم على قطع أسباب الصلات السليمة .

مصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أى حصن دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتضع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الأسطول واما عن اطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية الهادئة ، مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسانى ولقوانين الحرب .

وإلى آسف يا حضرة الأدميرال أن أعلمكم أن حكومة سموه تعتبر هذا الطلب غير مقبول وانها لا ترغب مطلقاً فى تكدير صفو العلاقات بينها وبين إنجلترا ، ولكنها لا تستطيع أن تعترف بأنها اتخذت أى تدبير يمكن أن يعتبر تهديداً للأسطول الانجليزى سواء أكان ذلك من جهة إقامة أعمال فى الحصون أو من ناحية تركيب مدافع بها أو إستعدادات حربية .

ومع ذلك فنحن مستعدون أن نزل ثلاثة مدافع من البطاريات التى أشرتم اليها فبهن لكم عن ميولنا السلمية ورغبتنا فى تلبية طلبكم . وإذا كنتم تصرون رغم هذه المقدمة على اطلاق النار فالحكومة المصرية تحفظ لنفسها الحق وتلقى مسئولية هذا العمل العدائى على عاتقكم .

فما أن وصل الخطاب إلى (سيمور) حتى أمر باطلاق النار وفى نفس الوقت أرسل (جرانفيل) وزير الخارجية البريطانية إلى سفراء إنجلترا فى باريس وبرلين وروما وفيينا وبطرسبرج يقول (ينوا للحكومة التى أتم معتمدون لديها أن الخطة التى أنبأنا بها أميرالنا أنه سيسير عليها فى مصر ليست أكثر من عمل دفاعى بسيط ومشروع ١ وان ماعمله سيمور لم يكن إلا خالفاً للحالة القهرية التى ألح على طلبها مندوب إنجلترا فى مؤتمر الأستانة ،

والعجيب أن سيمور يبدأ بالتحدى ويتهم به مصر ، ولست أدري من المعتدى والمتحدى أصحاب الشأن فى المدينة وفى أسوارها وطوايها ، أم الأسطول الانجليزى الدخيل فى المياه المصرية والمتمسك بالوسائل التى تحقق له رغبته فى الغدر ، ومع ذلك فإن القائد المصرى كان حكيماً وكراماً حين سد الثغرة وحسم النزاع بقبول إنزال المدافع ليكون ذلك حجة على إنجلترا التى لم يمنعها ذلك من أن تنفذ عدوانها دون أن تستند إلى أى دليل أو اتهام .

بدأ الأسطول المعتدى يصلى الاسكندرية نارا حامية من الصباح الباكر يوم ١١ ولكن القائد المصرى لم يكن باغياً فأمر بالرد على الأسطول الانجليزى إلا بعد القذيفة العاشرة ليكون ذلك حجة أخرى له .

ويقول الرافعى بك : (وكانت البوارج أثناء الضرب تتحرك فى سيرها بحجبها عن الأعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون إحكام المرمى واصابة الهدف فيها . وكل بارجة تحيط بها شبكة من الفولاذ إذا أصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدت قوتها .

وكان الأسطول يتجمع دفعة واحدة حول الطاية فيلج عليها بقنابله حتى يبيدها ثم يحصد أرواح الجنود بالمتريوزات ثم ينتقل إلى الحصن الآخر فيفعل به كما فعل بالاول .

وقد أبلى الرماة خلف مدافعهم بلاء نادرا ، فقد وقفوا فى شهامة وقوة وإيمان لا يبالون القنابل يدافعون إلى آخر ما فى أيديهم من عتاد للدفاع وكانوا يؤدون واجبهم فى العراء دون أن يخشوا الموت الذى يهددهم فى كل لحظة ولم يكن معهم وبالإلأسف دروع ولا متاريس وكان الرجال والنساء ينقلون الذخائر تحت نيران المدافع ويقدمونها إلى بقايا الطوبجية الذين كانوا يطلقونها وقد تطوع عدد كبير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى حمل الماء ونقل القتلى وتضميد الجرحى .

وظل الضرب طيلة اليوم واستؤنف يوم ١٢ فانهارت المنازل واشتعلت الحرائق فى المدينة كلها وقتل من المصريين ألفان ومن الانجليز خمسة أفراد وفى صباح ١٣ تأكد (سيمور) من انسحاب الجيش المصرى فنزل إلى المدينة واحتل شبه جزيرة رأس التين بجنوده البحارة !

١٤ سبتمبر ١٨٨٢

بعد ضرب الاسكندرية انسحب الجيش المصرى إلى كفر الدوار ، وقد طلب الخديوى إلى عرابى لإيقاف الاستعدادات الحربية فى كفر الدوار فلم يقبل فعزله الخديوى ولكن الجمعية العمومية أقرت بقاءه فى منصبه وانضمت إلى جانبه .

كانت انجلترا ترمى إلى مهاجمة مصر من ناحية الاسماعيلية واعتبارها (قاعدة الزحف) إلى طريق الزقازيق بالقاهرة . وفى ذلك مافيه من وضع اليد على قناة السويس واحتلالها والاستيلاء على ترعة الاسماعيلية . وقد كتمت انجلترا هذه الخطة وحاولت أن تظهر فى ميدان كفر الدوار حتى لا يتطرق إلى تفكير العرايين مهاجمتهم من الشرق .

وقد وضع محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى خطة حربية لتحسين خمسة مواقع يمكن أن تهاجم انجلترا مصر منها .

كفر الدوار ، رشيد ، بين رشيد وبحيرة البرلس ، دمياط ، الصالحية والتل الكبير وكان رأى يتجه فى أول الأمر إلى سد الترعة العذبة وردم القناة نفسها ، ولكن عرابى لم يقبل فكرة ردم القناة واطمأن إلى وعود (دسلبس) بحيدة القناة واحترام انجلترا لهذه الحيدة فى الوقت الذى هاجم الانجليز فيه القناة واتخذوها قاعدة حربية لهم .

وكانت الخطوة الثانية لانجلترا بعد اجتلال اسكندرية هي احتلال قناة السويس وقد احتل (سيمور) في ٢٢-١٨٨٢ بور سعيد والاسماعيلية بحجة أن هناك ترميمات تجرى في طابية على بحيرة المنزلة وفي ٢-٨-١٨٨٢ احتل الانجليز السويس في الوقت الذي لم تكن هناك أى تحصينات ولم يجد الانجليز في طريقهما أى مقاومة لانصراف عرابي إلى تحصين كفر الدوار .

وبعد أن اطمأن الانجليز إلى تمكنهم من الشرق هاجموا عرابي في كفر الدوار في ٥-٨-١٨٨٢ تغطية للهجوم الشرق وإيهاما بأن الانجليز يلقون بكل قواهم في هذا الميدان . وفي ٧-٨ وجه الخديوى منشور أعلن فيه عصيان عرابي وهنأ الانجليز بانتصارهم عليه واستمرت المعارك والمناوشات حول كفر الدوار .

وأصدر (ولسلى) منشوراً هذا نصه: (يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية أن مقاصد الدولة البريطانية في ارسالها تجريدة عسكرية ليست إلا لتأييد سلطة الخديوى وعساكرنا يحاربون فقط حاملي السلاح ضد سموه) بدأ الانجليز الزحف إلى القاهرة من ناحية قناة السويس .

وقد وصل الانجليز إلى القناة وعسكروا فيها لأنهم لم يجدوا أى مقاومة أو تحصين وقد فوت (دسلبس) على عرابي فرصة تحصين القناة وغدربه بتلغرافه المضلل الذى يقول فيه: (ان الانجليز يستحيل أن يدخلوا القناة) فلما وصلت البواخر الانجليزية أرسل إلى عرابي تلغرافاً آخر: « لا تعمل عملاً اسد قناتى ، فإنى هنا ولا تخش شيئاً من هذه الناحية إذ لا ينزل جندى انجليزى واحد إلا وبصحبه جندى فرنسى وأنا المسئول عن كل ذلك

وعند ما فكر عرابي فعلاً في سد القناة كان الانجليز قد سيطروا عليها ، فأصبحت في قبضتهم وبذلك عرف عرابي أخيراً أن الانجليز لا يبقون على المعاهدات الدولية وأنهم يهزأون بها ويعتبرونها قصاصات ورق لا قيمة لها حين يحاولون الغدر بفريسة من فرائسهم عرف ومكن بعد فوات الفرصة . .

وكذلك كان الانجليز دائماً على استعداد لحرق حرمة كل حياد وكل صك وكل وعد مهما بلغ قدره في سبيل الوصول إلى غرضهم الاستعماري المبيت . وهكذا اقتحم الانجليز القناة واستطاعوا أن يظفروا بتحقيق رغبتهم في هزم الجيش ودخول القاهرة واحتلالها .

ويأخذ المؤرخون هذا الخطأ على عرابي ويعتبرونه مسئولاً عنه إلى حد كبير والواقع أن عرابي حصن الاسكندرية وكفر الدوار تحصيناً منيعاً بحيث ارتد الانجليز عنهما مبهزومين ولكنهم أهمل في نفس الوقت الجانب الشرقى وخدع عن القناة وبذلك استطاع الانجليز النفاذ منه بسهولة ودون مقاومة وتحمل عرابي تبعه معارضته لفكرة تحصين القناة أو ردمها ومقاومة الخطط الحربية التي كانت تعتبر هذا شرطاً أساسياً لضمان المقاومة الكاملة وبذلك مهد للانجليز (الانتصار من أسهل طريق عرف في تاريخ المعارك)

واستعان الانجليز على الوصول إلى غرضهم الآثم بكل وسيلة آثمة، فاستعملوا الرشوة والخذاع والتضليل . واستعانوا كذلك رجال ويا للأسف مصريين أمثال محمد سلطان باشا الذى انتدب رسميا من قبل الخديو لمرافقة الجنرال ولسلى فى زحفه إلى القاهرة .

والذى اتصل بالعربان وقدم المساعدات والرشارى إلى بدو غربى القناة ، وكان يرافق الجيش وأرشد الانجليز الزاحفين إلى الطريق السهل القريب ، ودلهم على الأماكن التى تخفى على الدخيل ولا يعرفها إلا كل خبير . وكذلك ساعد الجيش الانجليزى فى زحفه كثير من الضباط المصريين الذين أرسلهم الخديو لمعاونة الانجليز وإرشادهم وقد ثبت ذلك رسميا فى برقية من (ادوارمالت) إلى (جرنفيل) والتى يسجل فيها أن ولسلى اتفق مع الخديو على إرسال بعض الضباط لمرافقة الجيش الزاحف ، هذا فضلا عن ترخيص الخديو للانجليز باحتلال القناة الذى جاء فيه ، إن اميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام بها ، ومن ثم فقد سمحنا لهم باحتلال جميع الأماكن التى يريان فى احتلالها مايساعد على فتح العصيان وبلغوا هذا الأمر إلى كافة سكان منطقة قناة السويس وموظفى وعمال القناة ،

احتل الانجليز بورسعيد والاسماعيلية فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢

وفى هذا اليوم نفسه اقتحمت السفن القناة ، واحتلتها ، مع المدينتين دون مقاومة لأنه لم يكن هناك استعداد معد لمواجهة هذه القوات

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن الانجليز منعوا مرور البواخر التجارية فى القناة ووضعوا بارجة حربية لتنفيذ هذا المنع لو احتاج الأمر إلى أن تمت لهم السيطرة عليها . ثم هجموا على معسكر العرايين فى (نفيشه) فى ٢١ فاحتلتها القوات وذلك بعد أن جعلت من الاسماعيلية والسويس قواعد حربية وكان ذلك تأهبا لاختراق طريق التل الكبير فالزقازيق إلى القاهرة

فى التل الكبير ، كان جيش عرابى ١٢ ألف جندى ، والباقي من المجندين الأحداث أما ولسلى فقد زحف فى ١١ ألف مشاة ، والفين فرسان ، و ٦٠ مدفع وبدأ الزحف من القصاصين إلى التل الكبير ليلا فى منتصف الثانية وأطلقت فى الطريق كل الأنوار ولم ينته العرايون للزحف وقد قطع الجيش المسافة البالغة خمسة عشر كيلو متر دون أن تصادفه أى طلائع من المصريين ووصلوا إلى معسكر العرايين قرب الفجر

وبوغت الجيش المصرى بالهجوم ، وهو نائم فاستيقظ رجاله على صوت الطلقات النارية فلم يكذب يضرب نفير الحذر حتى كان الجنرال ورجاله يهاجمون المعسكر فى عنف ووحشية فأحاطوا بالمعسكر فى شكل نصف دائرة واقترح الانجليز الاستحكامات الأمامية وأطلق رماثها القنابل عليهم فقتل نحو مائتين قبل أن يصلوا إلى الخنادق وضغط الانجليز على الجنود المقاتلين بالهجوم فوصلوا إلى خط الاستحكام الثانى وهجم فرسان الجيش على ميسرة العرايين فأحدقوا بها ، وأخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة ولم يزد عدد الذين اشتركوا فى المعركة عن ثلاثة آلاف أما الباقون فقدأ لقوا أسلحتهم وفروا ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة بلغت خسائر الانجليز فيها ٥٨ قتيلًا والمصريين ألنى قتيلا

وهكذا يظهر في وضوح وجلاء أن هذه مؤامرة أكثر منها معركة، وأن الغلب فيها لم يكن ناتجا عن مواجهة حرية صحيحة ، وإنما كان غدرا وغيلة ، وكانت هذه حلقة أخرى من حلقات المباغطة التي لا يمكن لمؤرخ منصف أن يعتبر هزيمة المصريين فيها هزيمة صحيحة ومعركة فاصلة بين استقلال وطن واحتلاله تتم في عشرين دقيقة فهي أعجب المعارك التي لا يصدقها العقل ولا يقرها .

وفد كان للرشوة ، وللخيانة ، وللدسائس ، وللؤامرات التي حبكت حول عرابي أبعد الأثر في هذه الهزيمة العظيمة فيها الطرف المصري ظلما لاحد له ، وإن الذين عرفوا مواقف الجيش المصري المشرفة في معارك رشيد والحاد وأبو مندور سنة ١٨٠٧ ومعارك الوره ١٨٢٥ ومعارك عكا ١٨٣٢ ومعارك قوته ويضير ١٨٣٩ ليشهدوا ببسالة الجيش المصري وقوته وعزيمته

أما معركة التل الكبير . فليست معركة بمعناها الصحيح

احتل الانجليز الزقازيق ثم بلبس وزحفوا على القاهرة ولم يجدوا مقاومة ما وأرسل عرابي أمره بالتسليم في الساعة السادسة مساء بعد وصول الانجليز إلى العباسية ولم يعمل بمشورة من استشارهم في المقاومة بالقاهرة بالرغم من الفرصة المتاحة له وإنما غلبه التفكير في مصيره الخاص

وركب إلى ثكنات العباسية فلما وصلها بردائه العسكري وسلم سيفه واعتقل وبذلك اطمأن الانجليز إلى أن كل مقاومة قد انتهت فأرسلوا كتيبة من الفرسان ليلا إلى القلعة فاحتلوها بعد أن أرشدهم (يوسف حنفي) إليها وقد وصلوها عن طريق الجبل ثم احتل الانجليز بعد ذلك قصر النيل وقشلاق عابدين وأخذت تفد كتائب الجيش الانجليزي إلى العاصمة وتحتل هذه الأماكن وبهذا تمت هذه المأساة . . .

تمت بالغدر والخيانة والظلم والرشوة . ولم تتم مطلقا بالعراك ولا بالنزال ولا بالحق ولا بالبطولة الحرية وأي حق شرعي لانيجلىترا في اجتلال مصر ، وأي وجه عرفي لها في أن تخلق هذه الوسائل المضللة العجيبة لتضل إلى بغية استعمارية طالما ملأت نفسها في أن تحتل مصر

هذا الاجتلال الذي ادعت أولا أنه لتثبيت سلطة الخديو ثم تحللت من تبعة الوفاء بعهودها في الجلاء ، هذا الاجتلال الذي تعللت له بمذبحة صنعتها بيدها ، ومدفع نصب أو طابية رمت ، هذا الاجتلال الذي خرقت لأجله حياد القناة وكرامة الوطن .

من الاحتلال الى الثورة

(١٤ سبتمبر ١٨٨٢ - ١٥ مارس ١٩١٩)

من المفارقات العجيبة أن يهزم المصريون الانجليز في (حملة فريزر) في ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ وأن يهزم الانجليز المصريين (حملة عرابي) في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢
في سنة ١٨٠٧ هزم الشعب (فريزر) وفي ١٨٨٢ انتصر (سيمور)
في سنة ١٨٠٧ هزم الشعب سيمور فريزر لأنه واجه المصريين مواجهة الحرب والنزال ، ولكن انجلترا التي عرفت مدى مافي مصر من قوة المقاومة عمدت إلى التآمر والغدر ، وعملت لذلك منذ تاريخ هزيمة فريزر حتى تمكنت من تنفيذ مؤامرتها سنة ١٨٠٧ أي بعد خمسة وسبعين عاما كاملة .
واتخذت من تشجيع مصر على الاستدانة وشراء أسهم قناة السويس وتأليب الدائنين وإحداث الاضطراب المالي وصناعة مذبحه الاسكندرية وسائل للوصول إلى هذا الغرض الأثيم

° ° °

ومن ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ت إلى ١٥ مارس ١٩١٩ صحيفة أخرى بدأت بالاستسلام للاحتلال ، ولكنه استسلام لم يطل أمره ولم يشمل كل الطبقات والشعب ، وإنما كان أول أمره ترقبا وتحفزا ثم تكشف عن مقاومة سليبه عرفها الناس في استماعهم إلى صوت مصطفى كامل ثم في مقاومة عابثة صريحة أبرزها موقف شريف باشا في فصل السودان وموقف الشعب من مد أجل قناة السويس ومن يوم دنشواي المشؤم حتى جاء يوم الدماء (١) ، فقدم الشعب دمه وثار ثورته فز الدنيا وأثبت أن في مصر (كيانا) قويا دافعا بالحرص على العزة والكرامة والرجولة

دستور الاحتلال

كذبت الوقائع ادعاء الانجليز بأن الاحتلال مؤقت بانتداب (دونر) سفيرها لدى الباب العالي إلى مصر في وقت لم يتجاوز ستة أسابيع من احتلالها لمصر لوضع نظام جديد للحكم في مصر ، يثبت لها قواعد السيطرة ويركز أعلام البقاء
وقد حضر محاكمة العرايين ووجهها الوجهة التي أرادها الانجليز وقد كان له من قبل (فضل) الاشتراك في تدبير الدسائس لهزيمة العرايين وحك اطراف هذه المؤامرة
درس دوفرين خلال إقامته بمصر الوسائل التي تؤدي إلى تثبيت أقدام الاحتلال ووضع بها تقريراً عرف فيما بعد أنه دستور الاحتلال الذي سار عليه عملاء الاستعمار في مصر إلى سنة ١٩١٩ حين حضر ملتر بعد الثورة فوضع الدستور الجديد على ضوء أحداث الثورة

(١) بجمي. ذلك في مكانة في مبعث (الحركة الاستقلالية الوطنية في وادي النيل)

وقد رمت انجلترا من هذا التقرير إلى وضع سياسية ثابتة ، ليظل احتلالها لمصر قائما ، وأن ينظم هذا الاحتلال بحيث يشمل جميع مرافق الحياة وأن يظل محجبا مقنعا حتى لا يثير الدول ولا يدعو إلى فتح باب المسألة المصرية مرة أخرى ، خاصة وأن فرنسا وتركيا كانتا مهتمتان ببقاء انجلترا في مصر تعمل ، كل منهما في ميدانها ، على محاولة إحراجها
وقد أشار (دوفرين) في تقريره إلى النقاط الآتية

١ - الاحتلال : على انجلترا ألا تتولى حكم مصر المباشر وإدارتها لأنها إن فعلت ذلك تثير سخط المصريين وكرهيتهم مما يضطرها إلى الجلاء عن البلاد أو ضمها إلى أملاكها وهو مالا تنصح به . ويرى الاكتفاء بنصيب أقل من السيطرة على البلاد وإعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم في ظل الصداقة البريطانية .

(وقد تحقق هذا بإنشاء مدرسة حزب الأمة وتكوين الحزبية السياسية التي اعترفت بمبدأ التفاهم والمفاوضة والمساومة بعد ثورة ١٩١٩)

٢ - الجيش : ليست مصر في حاجة إلى جيش كبير للدفاع عنها ، لأنها محدودة بالصحارى من كل جهة ، ويكفى أن يكون لها جيش من ستة آلاف جندي للحفاظ على الأمن داخل البلاد على أن يكون تحت أمره قائد انجليزي له معاونون من الضباط الانجليز ويكون البوليس كذلك تحت أمره مفتش عام من الانجليز .

٣ - النظام النيابي : إن مصر ليست كفؤاً لأن يكون لها مجلس نيابي وحكومة ديمقراطية ، وعاب على مجلس النواب سنة ١٨٨١ إنه لم يك يمثّل الأهلين تمثيلاً صحيحاً لأنه تألف من كبار الملاك والأعيان ، واقترح نظاماً جديداً هو مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ومجالس المديرية .

٤ - القضاء : طالب بإعداد القوانين الحديثة في مصر بإدخال النظام الأوربي في المحاكم الأهلية واقترح اسناد وظيفة النائب العمومي إلى انجليزي بدلا من المصري الذي يتولاها .

٥ - الري والأشغال : طلب من الحكومة المصرية أن تستدعي مهندسا من مارسوا نظام الري في الهند لتنظيم شؤون الري والأشغال في مصر وفق النظام الانجليزي المتبع في الهند .

وتكلم عن التعليم والنظام المالي والمساحة والفلاحين وأشار إلى المصاعب المالية التي تقاسيها مصر والتي لا يمكن لها مواجهتها دون إرشاد الانجليز وتوجيههم وعلق الجلاء على صلاح الأمور وقد تنفذت أغلب هذه الرغبات وهو مقيم في مصر ، وقد أشار أيضا باستبدال حكم الاعدام لعراي بالنفي وأبطل الدستور وألغى مجلس النواب وشكل مجلس شورى القوانين وعين موظفا انجليزيا لكل من وظيفة النائب العمومي ومفتش الري ومستشار المعارف .

وبعد أن انتهت مهمته ، عين كرومر في ٣٠-٤-١٨٨٣ قنصلا عاما لانجلترا في مصر ، كان صاحب السلطان الفعلي إلى ١٩٠٧ أى مدى ربع قرن كامل .

النصائح

أخذت (إنجلترا) بعد ذلك تفرض إرادتها على الحكومات القائمة وتتدخل تدخلا فعليا في تصرفاتها وتسيطر عليها وتسمى هذه الأوامر الإلزامية التي تملئها « نصائح » . وقد ظهر هذا المعنى في أوضح صورة ، عندما أصدرت إنجلترا على أن تسحب مصر حاميتها من السودان سنة ١٨٨٤ وتوقف شريف باشا عن الاستجابة لتلك الرغبة الإلزامية وأرسل (جرانفيل) تلغرافه الثاني الذى أكد فيه هذا المعنى .

ولقد استقال شريف باشا محتجا لهذا التدخل ولكن الانجليز وجدوا بعد ذلك من يقبل الحكم في ظلال هذه السيطرة ، ومن يستسلم ويسمع هذه النصائح دون خجل أو حياء ، هؤلاء هم الذين استغلهم الاستعمار الانجليزى وأيد بهم مركزه غير الشرعى وفرض سلطانه على الشعب .

وهذا نص تلغراف (جرانفيل) في ٣-١-١٨٨٣
« انه وإن كانت القوات البريطانية باقية في مصر إلى الآن لصيانة النظام العام فإن حكومة جلالة الملك تنوى سحبها عندما تسمح بذلك حالة البلاد ، وتستطيع بوسائلها تثبيت سلطة الخديوى ، وإلى أن يحين ذلك فإن مركز حكومة جلالة الملك بإزاء سموه يقتضى عليها بذل نصائح لتتأكد من أن النظام الذى سيوجد يكون مرضيا ويحتوى على عوامل الاستقرار والتقدم .
وهذا هو نص تلغراف (جرانفيل) في ٤-٤-١٨٨٤ على أثر حادث شريف باشا وامتناعه عن التسليم بإجلاء الجيش المصرى عن السودان .

« ذكرتم أنه في حالة اصرار حكومة صاحبة الجلالة الملكة على طاب اجلاء السودان لا تقبل حكومة الخديوى حسب رأيكم في تنفيذ هذه السياسة ، ولا أرى حاجة إلى أن أوضح لكم انه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائم في مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى إسدائها فى المسائل الهامة التى تستهدف لها إرادة مصر وسلامتها للخطر ، ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسؤولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على إتباع السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لايسير وفقا لهذه السياسة . وأن حكومة جلالة الملكة لوائقة من أنه إذا اقتضى الحال إستبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة وهم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها اليهم الخديوى بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة .

كرومر

كان كرومر قبل تنصيبه لمركزه البريطانى في مصر ، يشغل وظيفة ممثل إنجلترا في المراقبة الشائبة ، وقد كان له أكبر الأثر في تحريض الدائنين ، وإحداث موجة عاصفة من الاضطراب التى هيات للاحتلال الفعلى وقد بدأ عهده الأسود المظلم بمطالبه بدفع تعويضات للأجانب عن الخسائر التى لحقتهم فشككت لجنة مختلطة

لنظر التعويضات وقد انتهالت عليها التعويضات ومعظمها مزورة وملفقة لا دليل على حدوثها وقد بلغت ٢٥٠.٠٠٠ جنيه

وألقى المراقبة الثنائية وعين مستشارا ماليا لإنجلترا سنة ١٨٨٣ وأنشأ مجلس شورى القوانين ، ولم يكن له أمر قاطع يفرض تنفيذه في أى أمر وإنما كان شوريا (أو سوريا) محضا

وألقى الجيش الوطنى وأنشأ جيشا برئاسة سردار إنجليزى وتحت قيادة ضباط إنجليز كما عين قومنداناً لإنجلترا للجيش

وأخذت خزانة مصر تدفع نفقات جيش الاحتلال ورواتب الموظفين الانجليز وتنفق على حملة إخلاء السودان وقد بلغ ذلك حوالى أربعة ملايين جنيه

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أرغم مصر على إخلاء السودان ، وإعادة الحماية المصرية فيه ثم أرغما بعد ذلك على الاشتراك مع الانجليز فى حملة جديدة إلى هناك باسم « الإعادة » ، رفع على أثرها العليين المصرى والإنجليزى وانتهى ذلك بعقد اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة التى وقعت سراً ، وفرضت عنوة واقتداراً

مفاوضات الجلاء ١٨٨٥ حادث فاشودة ١٨٩٨ مدامتياز القناة ١٩٠٧
أزمة الحدود ١٨٩٤ اتفاق السودان ١٨٩٩
وزارة مصطفى فهمى ١٨٩٥ الاتفاق الودى ١٩٠٤
دنشواى ١٩٠٦

مفاوضات الجلاء

جرت بين تركيا وإنجلترا مفاوضات بشأن الجلاء عن مصر ، قبلت إنجلترا الدخول فيها مداوة لموقفها وإظهارها لحسن النية المكذوب وقد استمرت هذه المفاوضات من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٨٧ وانتهت بالفشل فقد تعنتت إنجلترا تعنتاً عجيباً

وإن كنا نسجلها هنا ، فإنما يكون ذلك ، لتقرير حقيقة واقعة هى أن مسألة « الجلاء » كانت مبدأ مقررأ قبل ثورة ١٩١٩ وقبل العهد الأغبر الذى بدأه زعماء مابعد الثورة بالمساومة فى الحرية ، وامتناعهم من عرض هذا المبدأ أو دراسته أو التمسك به

وهذه نصوص موجزة من اتفاقية الاستانة فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٧

- ١ — تحديد موعد الجلاء بثلاث سنوات للقاهرة وخمس سنوات لسائر القطر (حددت المعاهدة لعام ١٨٩٠)
- ٢ — إذا تبين أن هناك احتمال خطر داخلى أو خارجى يؤجل موعد الجلاء إلى أن يزول الخطر
- ٣ — يبقى لإنجلترا بعد الجلاء رقابة عامة على الجيش تنتهى بعد سنتين من تمام الجلاء
- ٤ — يكون لتركيا وإنجلترا حق إرسال جنود إلى مصر فى حالة اضطراب الأمن والنظام على أنه فى حالة وجود مانع لدى تركيا يحول دون إرسال قواتها إلى مصر فإنها توفد مندوباً يبقى بمصر طول مدة احتلال الجيش البريطانى

وهكذا تظهر نية إنجلترا في الاصرار على البقاء أو العودة باسم أى حدث من الأحداث التى يمكن أن تتأمر على إحداثها ، والواقع أن إنجلترا كانت ترغب من هذه المفاوضات فى الحصول على وثقة تجعل احتلالها شرعيا ومع هذا فإن هذه المفاوضات حجة قاطعة لا شك فى ثبوتها على أن مبدأ الجلاء حق مقرر والواقع أن انفلات هذه الفرصة كان خاتمة لوعود إنجلترا عن الجلاء إذ أنها استطاعت بعد ذلك أن تتخذ من حوادث البقاء كما أنها عمدت إلى تسوية أمورها مع فرنسا بعد سبع سنوات حين عقدت (الاتفاق الودى فى ٨ إبريل سنة ١٩٠٤) فضمنت البقاء والاستقرار فى مصر

أزمة الحدود

تأمر أجناد إنجلترا فى مصر على الخديوى لعنايته بالجيش فانهزوا فرصة حادث الحدود فجعلوا منه مسألة وخلقوا به أزمة وأثاروا به فتنة

عندما عرض الخديوى فرقة من الجيش فى ١٨ - ١ - ١٨٩٤ ، كانت الفرقة بقيادة ضابط بريطانى وقد لاحظ الخديوى بعض النقص فى النظام والتدريب فلفت نظر وكيل الحرس إلى ذلك وهو مصرى فانهز (كتنشز) الفرصة واعتبرها إهانة لإنجلترا ، وازدادت تعنتا بعد أن اتصل بكرومر فقدم استقالته احتجاجا ، واعتبرت إنجلترا هذا الحدث أزمة فعلية وحملت ظروفه وأوضاعه أكثر مما تحتمل كما هى عادة إنجلترا فى غدرها وتأمرها وزادت إنجلترا فى التعنت فأشارت بضرورة اعتذار الخديوى عن ملاحظاته بشكر السردار والضباط الانجليز على أن يكون ذلك قيل عودته من الرحلة وهددت الصحف الانجليزية بلغتها الاستعمارية الظالمة ، واضطر الخديوى تحت ضغط الموقف وضعف الحكومة (حكومة رياض) أن يوجه إلى السردار خطابا من الفيوم وهو فى طريق عودته فى ٢٦ - ٨ - ١٨٩٤ هذا نصه

قبل أن أترك الوجه القبلى للعودة إلى مصر أريد أن أكرر أن ما أظهرته من حسن العناية للجيش عند زيارتي للحدود وأؤيد حسن رضائى الذى أبديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وإنى لمسور من أن أهنيء الضباط الذين يرأسونه مصريين كانوا أو إنجليز وإنى لمرتاح أيضا لأن أقدر الخدمات التى أداها الضباط الانجليز لجيشنا حق قدرها وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر

وهكذا فرض الانجليز سلطانهم فى مثل هذا التعنت الصارخ فى الوقت الذى كانوا يفاضون فيه فى الجلاء ويصرحون فى مجلس العموم بأن احتلالهم مؤقت وأن فى نيتهم الجلاء عن مصر

الجنوب

زاد تفاقم الثورة فى السودان ، وكانت إنجلترا تدبر مناورتها الهائلة وتعددها لذلك الانفصال الذى صورته « غلادستون » ١٨٣٨ حيث يقول

« إذا توطدت أقدامنا فى مصر تكون هذه المستعمرة بمثابة ذريعة لتأسيس إمبراطورية شاسعة فى إفريقيا تأخذ فى النمو تدريجيا إلى أن تدخل فى تخومها منابع النيل الأبيض ،

وهكذا طلبت إنجلترا إلى مصر أولا سحب عبد القادر حلى باشا حاكم السودان سنة ١٨٨٣ وقد كان

قائداً محنكا له دربة وخبرة بأحوال السودان وتعيينه هكس ، بدلا منه بما كان له أبعد الأثر في هزيمة الجيش المصرى أمام جموع المهدي التي أهاجها أن يقود الجيش المصرى رجل إنجليزى ...
فانهزمب الحملة المصرية في موقعة (كيشان) هزيمة منكرة نصحت إنجلترا مصر على أثرها بإخلاء السودان بحجة عدم قدرتها على الاحتفاظ به وعجزها عن حمايته
وقد رفض شريف باشا هذا الطلب وتمسك بارتباط مصر والسودان وقال عبارته الخالدة إن تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا وقدم استقالته المسببة في يناير سنة ١٨٨٤
وجاء نوبار بعده وقبل مارفضه شريف وأخلى السودان وكان لهذا القرار أبعد الأثر في كيان مصر

وزارات الاحتلال

شككت وزارات الاحتلال من صنائع إنجلترا في مصر التي سلبت لها بكل ما تطلب

نوبار ١٨٧٤ - ١٨٧٧

رياض ١٨٨٨ - ١٨٩٠

مصطفى فهمى ١٨٩١ - ١٨٩٣

مصطفى فهمى ١٨٩٥ - ١٩٠٨

ووجد الاستعمار إلى جواز ذلك اذنايا يخلصون له ويسرون في ركه ويهدمون بناء أمتهم في سبيل مرضاته
امثال فتحى زغلول وبطرس غالى ومحمد سعيد وغيرهم ممن اشتركوا في العدوان على الحركة الوطنية ، في دنشواى ،
وفي اتفاقية السودان ، وفي المواقف السكثيرة المختلفة

مصطفى فهمى

يكنى لمعرفة تاريخه شيثان : أولهما أنه قضى في الحكم ثلاثة عشر عاما متوالية
الثانية هذا الشناء المستطاب من كرومر عنه في حفل توديعه ، امتاز مصطفى فهمى بتسامي الاخلاص والحرية
والاستقامة في كل عمل من أعمال حياته ، وخدم أهل بلاده اجل الخدم ولكن بطريقته المعروفة من السكينة
والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لايعنيه ،
وقد امتدح كرومر في حفل وداعه فقال «تضحيتكم التي ضحيتموها باحتمال المشاق في سبيل القيام بما فرضه
عليكم حبكم لهذه البلاد ولم تنس مصر أن حسن الحال الذي وصلت اليه والذي استوجب الإعجاب العام هو
نتيجة ارشاداتكم السديدة ومؤازرتكم الأكيدة
ولا غرو أن اغتنمنا الفرصة لنعرب لكم عن تعلقنا بكم واننا لا نزال نعتبركم كواحد منا »

أقال الخديو وزارة مصطفى فهمى في يناير ١٨٩٣ دون استشارة كرومر وقد قبل ذلك بالفرح من المصريين
عامة وكان مصطفى مكروها من الأمة أشد الكراهية لخضوعه المطلق للاحتلال وتسليم (المخلص) للانجليز
وقد عارضت إنجلترا في تعيين الوزارة الجديدة (وزارة غبرى باشا) وطالبت بحققها في الرقابة على اختيار

الوزراء المصريين طبقا للتغراف جرانفيل في ٤ - ١ - ١٨٨٤ وبأنه في حالة الامتناع عن العمل بالنصائح تحمل اخطر العواقب

وقد كشف هذا الموقف من إنجلترا ما ادعته من قبل أنها إنما جاءت لحماية عرش الخديو فإذا بها تعارض الخديو نفسه فيما ترى من تصرفات في حقه المشروع باختيار وزرائه ولم يعدما تسوغ به إنجلترا دعواها بالمحافظة على حقوق الخديو بل بالعكس لقد أباحت لنفسها حق نقض هذه الحقوق ، وبدا في هذا معنى التحدى الفعلى على مصر وحريتها ولم يكن قد مضى عن الاحتلال عامين وقد حملت الصحف الانجليزية حملات عنيفة على إقالة مصطفى فهمى واعتبرت هذا اهانة لممثل إنجلترا في مصر بما كان له أبعد الأثر فى دعوته إلى الحكم فى نوفمبر سنة ١٨٩٥ فبقى فيه إلى نوفمبر ١٩٠٨

آثار لاحتلال

وهذه بعض آثار الاحتلال وقد تم اظهرها فى عهد مصطفى فهمى .

(١) انشأ البنك الأهلى سنة ١٨٩٨ وحمل أسهم اليهود والانجليز امثال (سلفاجوا ، كسل ، سوارس) وبيع البواخر المصرية باحواضها ومستودعاتها ومخازنها وقد قدرت بأكثر من ثلاثة ملايين جنيه باعها الحكومة المصرية بمبلغ ١٥٠ الف جنيه وبذلك تم القضاء على الاسطول التجارى المصرى (٢) ابتكر كرومر ضريبة جديدة يثقل بها كاهل الاهالى زيادة على الضرائب الفادحة التى كانت تقتطع من اقواتهم هى البديل النقدى للخدمة العسكرية مصدر فى ١٨٨٦ أمراً عالياً بان لحل شخص قابل للتجنيد يعنى منه بدفع مبلغ ٤٠ جنيه قبل الاقتراع و ١٠٠ بعده وقد حصلت الحكومة سنة ١٨٨٦ من هذه الضريبة ١٥٩ الف جنيه وقد كان لها أثرها البالغ فى نفوس الفقراء من الفلاحين وفى سنة ١٨٨٧ فرد بدل السخرة وكان مقداره ٣٠ قرشا فى الوجه البحرى فكان مجموع دخل الحكومة منه ٨٨ الف جنيه ثم ارتفع إلى ١٣٣ الف جنيه سنة ١٨٨٩ .

(٣) استفحلت الجرائم واضطرت نسبتها التصاعدية منذ احتلال إنجلترا لمصر حتى بلغت سنة ١٩٠٦ ٣٢٠١ جريمة منها ٤٧١ جريمة قتل ، ٣٩٢ جريمة شروع قتل ، ٤٩٣ سرقة باكره و ٥٢١ جريمة احراق عمد و ١٦٥٧٩ قضية سرقة

(٤) ادانة الانجليز الخزينة بمبلغ ١٠٤٩٤٠٠٠ لخملة السودان

(٥) اهتم كرومر بافساد التعليم وسلب روح الاسلاميه والوطنيه وبلغ . دنلوب ، فى ذلك مبلغا سجله له التاريخ ، والزم المصريين بدراسة الانجليزية وارغم الشباب على مناهجها فارتفع عدد طلابها من سنة ١٩٨٩ إلى سنة ١٨٩٨ من ١٠٦٣ تليذا إلى ٣٨٥٩

ويقول المسبوجان رددز فى جريدة الطان فى ٣١-٣-١٩١٠

و ان عجز إنجلترا عن فرض مدنيها على مصر يظهر جليا فى اللغة بوجه خاص فبعد أن مضى على الاحتلال ثلاثون سنة لم تنجح إنجلترا بالرغم مما فى يدها من الضغط الشديد من تعليم اميرى ودبلومات مدارس عالية ومناصب حكوميه أن تدرس بمصر لغتها وحضارتها

وقد يلحظ الإنسان إلى حد ما أثر الروح المعادية لكل ما هو بريطاني والتي لا تزال تسلك إلى إظهار نفسها سبلا خفية ،

٦ (ازداد عدد الموظفين الانجليز من سنة ١٨٩٦ إلى ١٩٠٦ من ٩٦٠ موظف إلى ١٢٥٢

وفي سنة ١٨٩٦ بلغ عدد الموظفين الأجانب ٢٨٩

وفي سنة ١٩٠٦ " " " " ٦٦٢

٧ (زادت إنجلترا جيش الاحتلال سنة ١٩٠٤ من ٢٦٠٦ - ٤٧٥٨ وبلغت تكاليفه من ٧٩٠٠٠ ر جنيه إلى ١٤١٠٣٧٥ ر جنيه

وخفض الجيش المصرى كالوضع الآتى :

فى عهد عرابى : ٥٠٠٦٠٠

نوفمبر ١٨٨٢ : ١٢٠٠٠٠

يونيه ١٨٨٣ : ٦٧٦٣

١٨٩٢ : ٢٠٠

وقد كان الجيش أول ما وضع الانجليز يدهم عليه ، وفى هذا معنى نية الغدر على تثبيت أقدام الاحتلال بتعيين سردار انجليزى ، واختيار طائفة من الضباط الانحاز لقيادة معظم فرق الجيش من مشاة ومدفعية ، وفرسان وأركان حرب

وأقر المبدأ بالاعفاء من البدل النقدي فى ٩ يونيه سنة ١٨٨٦ وفى هذا القانون مافيه من خلق وضعية جديدة سيكولوجية تشهر باحتقار الجندي وتعتبر اداءها عجزا عن اداء البدل النقدي لادفاعا عن الوطن والغيت مدارى الصناعات الحربية كالمشاة والفرسان والمدفعية وغيرها والغيت جميع الترسانات الخاصة بنصب المدافع وصنع الدخائر

وانشئت وزارة نوبار منصب أول مستشار بريطاني للداخلية فى ٣ - ١١ - ١٨٩٤ وأسند إلى (الدوق حورسب) الذى اصبح من بعد معتمد بريطانيا

وانشئت المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يعتدى على ضباط الجيش الانجليزى فى ٢٥ - ١ - ١٨٩٥ وهى المحكمة التى أسند اليها تنفيذ حكم دنشواى

حادث فاشدوه

كان التنافس على مصر بين فرنسا وانجلترا على أشدة منذ الحملة الفرنسية وقد أدى ذلك إلى تصادم رسمى عرف باسم حادث فاشدوه وقد عمدت فرنسا إلى إثارة المسألة المصرية من جديد فى ١٨٩٦ (مارشان) على فاشدوه الواقعة على النيل الآبية واحتلها فى ١٠ يوليه ١٨٩٨ فعملت انجلترا على اجلائه باسم حق مصر فى أعلى النيل ، وأكدت لفرنسا أن فاشدوه أرض مصرية ساركشن على رأس جيش مؤلف من ١٨٠٠ جندي مصرى و ١٠٠ بريطاني فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ واحتج على احتلال فرنسا لهذه الأرض المصرية ، ورفع العلم المصرى عليها

الاتفاق الودى

انتهى الخلاف بين إنجلترا وفرنسا إلى عقد الاتفاق الودى فى ٨ ابريل ١٩٠٤ وما جاء فيه ، ووتعهد الحكومة الفرنسية بأن لاتعرق عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل الاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى ، . وزاد مركز إنجلترا فى مصر قوة وجدة .

وقد كان لهذا أبعد الأثر فى تمسك الاحتلال الانجليزى فى مصر وتضاعف آثاره حتى أنه لم يكن يمضى أمر من الأمور مهما بلغت تفاهته دون قبولهم أو إقرارهم وقد أمسكوا بزمام المناصب الرئيسية وعهد كرومر إلى الظهور فى صورة ضخمة من السيطرة والنفوذ والسلطان والتسلط فكان يزور الأقاليم ويخطب فى الناس . وأخذت إنجلترا بعد الاتفاق تتذكر لوعودها الأولى فى الجلاء وأخذ كرومر يحمل على المصريين فى تقاريره فيطعن فى كفايتهم للحكم الذاتى ويقول كرومر فى ثورة سنة ١٩٠٥ (إن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن يعلم الحالة فى مصر فلما عرفها علم أن الوعد كان فى غير محله وأن تنفيذه يفضى إلى اضرار جسيمة .

ويصرح المستر فيلزر استورات فيقول: (إن مصر تحتاج إلى جيلين من الزمان لتثبيت دعائم الإصلاح الذى تم وإعطائه صفة الدوام ، ولو تركت البلاد وشأنها لاتسكست سريعاً وعادت إلى تصرفاتها الماضية السيئة)

وقد سجلت إنجلترا رسمياً فى الاتفاق الودى أنها (لاتقوى على تغيير الحالة السياسية فى مصر) ويقول كرومر فى مقال له بالتيمس فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٧ (أما أنا فلا أرى غير طريقة واحدة للقضاء على هذا الهياج والاضطراب الموجود بمصر والهند هو أن نظل مثابرين على القيام بواجبنا وأن نشد الوطأة على المتطرفين إذا ما تعدوا حدود القانون)

وعهد كرومر إلى حيلة عجيبة حتى يثبت بقاء إنجلترا فى مصر ، هى أنه كلما ظهر فى الميزانية زيادة فى الإيرادات عن المصروفات عمد إلى انفاقها واستهلاكها فى مناقصات لاحاجة لمصر بها .

وإلى سنة ١٩٠٤ كان الاحتياطى ١٣ مليون جنيه ثم وصلت فى السنوات التالية إلى ٢٦ مليون جنيه . وقد أنفق هذا المبلغ الضخم فى إنشاء ثكنات ومساكن بالسودات ومضاربات فى سندات الترنسفال .

وقد كان موقف مصر بالنسبة لتركيا موقفاً دقيقاً فى العرف السياسى الدولى وقد ظلت بريطانيا إلى عقد الاتفاق الودى تعمل باسم المحافظة على سلطة الحديرو وقع الثورة ورد البلاد إلى حالة الهدوء ، وتصرح بأن احتلالها مؤقت بل إن علا دستون كتب إلى مصطفى كامل يقول: (إن زمن الجلاء فيما أعلم قد وانى منذ وقت طويل) ولم تكن إنجلترا تجرؤ على تمزيق هذه المعاهدات الدولية التى تقرر وضع مصر ولم يكن لها سبيل إلى تجاهلها ، ولكنها بعد أن عقدت الاتفاق الودى ضمنى انهيار جبهة المقاومة فكشفت قناعها ومزقت عناصر الاستقلال وزاد طغيانها زيادة واضحة .

دنشواى

إن السكابتين (بول) الذى مات فى هذا الحادث إنما مات على أثر ضربة شمس بعد هروبه وقطعه بكل سرعة مسافة خمس كيلو مترات وكانت الشمس حارة فسقط ميتا وقد كان العدوان من الضباط الانجليز وكان رصاصهم سببا فى إحراق أجران الغلال مما أثار الأهالى وأحدث هذا الاشتباك .

وقد أدى ذلك إلى حدوث أفظع مجزرة عرفها التاريخ فى العصر الحديث راح ضحيتها عدد من المظلومين الذين لا ذنب لهم ولا جريرة وكان لهذا الحادث أبعاد الأثر فى توطيد الفكرة الوطنية فى مصر ، وأعظمه فى تقويض سلطان كرومر .

وقد استغل مصطفى كامل الفرصة فأطلع العالم على مدى هذه الوحشية بتصويره لهذا الحادث فى مقال كان له دوى عظيم فى الأوساط الغربية ومما جاء فيه :

« لم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس حيث أن أكثر الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى وفى ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين بالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ، وبالمدة سبع سنوات على ستة وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة وبالجلد على خمسة وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكراباج له خمسة زيول نصبت المشاقق ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر وأحاطت عساكر الدراجون ، الانجليزية بالمحكوم عليهم والتفت الحياالة المصرية حول الانجليز وتولى مستشار الداخلية ومدير المنوفية أمر التنفيذ وقد تقدم إليهما ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة فرفضتا قبول هذا الرجاء الذى عز ما يرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل .

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيوطها وشهت سيوفها وبدأ بعد ذلك بدقيقة هذا الشنق . فشنع رجل ولبت أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب وجلد إثنان أمام الجثة وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ساعة من الزمان منظر وحشى مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين بدموع الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا أن يوم ٢٨ يونيه ١٩٠٦ سيقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا وهو خليف بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الممحمية والوحشية .

وكانت دنشواى أثرا من آثار الاتفاق الودى ، وإن كان لها أبعاد الأثر فى تخليص مصر من طاغية الاستعمار كرومر ، وبدء يقظة الشعور الوطنى الذى اندفع فى قوة وعنف بعد حدوثها وإلا يكون أصحاب الجلايب الزرق الذين جابهم كرومر بعطفه الصورى من قبل .

مد امتياز قناة السويس

ينتهى امتياز قناة السويس سنة ١٩٦٨ ، وقد عمدت إنجلترا إلى محاولة مد هذا الامتياز أربعين سنة فأثارت ذلك سنة ١٩٠٧ على أن تدفع الشركة للحكومة ٤ مليون جنيه على أربعة أقساط سنوية ، وتدفع للحكومة من ٤ إلى ١٢ ٪ من صافي الأرباح سنة ١٩٦٨ و ٥٠ ٪ مما يزيد الإيراد الصافي عن مليون جنيه فيما بين سنة ١٩٦٨ - ٢٠٠٨

وقد ثار الرأي العام لهذا أعظم ثورة ، ودافع عن المشروع زعيم من زعماء مصر الذين برزوا بعد الثورة برزوا عظيمًا ولكن الأمة ممثلة في شعبها وهيئاتها الرسمية أجمعت على رفض المشروع وقد كانت إنجلترا تبغى أن تتخذ به تكأة جديدة لبقائها في مصر

اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة

في ١٢ - ٣ - ١٨٩٦ وصل أمر انجليزى إلى (كتشنر) بالقيام بحملة على السودان وقد بلغت هذه الرغبة إلى مصر فاشتركت مصر في الحملة بجنودها واشتركت بريطانيا بالاشراف والسيادة ، وعاد الجيش المصرى إلى السودان وانتهى أمر حكومة الدارويش في ٢٤ - ١١ - ١٨٩٩

ورفعت إنجلترا العلم الانجليزى بجوار العلم المصرى منذ ذلك اليوم وازغمت مصر على توقيع اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة التى ليس لانجلترا ولا لمصر فى توقيعها وجه شرعى .

كما أن حادث العودة إلى السودان وتوقيع هذه المعاهدة لم تفعله مصر باختيارها ، وإنما اضطرت اليه اضطراباً تحت ضغط الاحتلال واكرامه ، ولم تدر بشأنها أى مفاوضات أو مباحثات وإنما فرضت فرضاً فى ظروف عصيبة قاهرة واستغل فى توقيعها تلغراف جرانفيل الخاص بالنصائح الالزامية .

وتعتبر اتفاقية سنة ١٨٩٩ غير موجودة قانوناً لأن موقعها أمضاها باسمه ولم يهرها بوصفه وزيراً للخارجية ولأن مصر لم تقرها رسمياً ولم يكن لمصر الحق الشرعى ولا الأهلية الدولية فى عقدها ولأنها تضمنت تنازلاً عن حقوق لم تكن تمتلك مصر النزول عنها .

وان ظروف التعاقد قد انتفى منها الرضا والاختيار من جانب مصر انتفاءً تاماً .

وقد فرضت على مصر الانسحاب الفعلى من حكم السودان والتعويض المطلق فى إدارته الحاكم لم ينص على أنه انجليزى ، وإنما نص على أن إنجلترا هى التى تختاره ، كما أن طريقة التطبيق كانت باطلة طيلة هذه المدة فقد استباح الحاكم العام لنفسه التصرف المطلق وعدم الرجوع إلى مصر .

لحماءك السافرة

ومضت بريطانيا في طريقها الذي رسمته ونفذته دون أن تجد دولة من الدول تقف في وجهها أو تعترض طريقها ، أما تركيا فقد كانت في أشد حالات الضعف فلم تكن لديها القدرة على مقاومة إنجلترا . وأما فرنسا فقد ظلت تناوش إنجلترا وقتاً طويلاً ، ظن خلاله بعض المصريين أن فرنسا ستكون معهم على إنجلترا ، فإذا بانجلترا الماكرة الخادعة تطويها تحت جناحها ، عند مايو قمعان الاتفاق الودى ١٩٠٤

هذا الاتفاق العجيب الذي كشف للعالم كله كيف يسير الاستعمار والذي صرح بعد طول الحفاء والحجاب أن الاستعمار الغربي واحد في هدفه مهما اختلفت وسائله وأما كنه وأنها هي الخصومة الأئمة للإسلام والمسلمين ، ولهذا الأوطان الكريمة التي شهدت نور النبوات ، وذات فيض الرسالات . . .

ولأول مرة في التاريخ تتفق دولتان على المساومة المسكشوفة في إطلاق اليد والتبادل الحر للوطنين مسلمين أحدهما مصر والثاني الجزائر .

ولقد كان موقف إنجلترا دقيقاً في أول الأمر كل الدقة فهي قد دخلت مصر بعزل واهية وأساليب عجيبة وخدع تعللت بها دون أن يكون لها في الواقع أثر ولا تأثير .

فهي التي حرّضت الدائنين على أحداث جو مضطرب في مصر ، وهي التي وجهت المالية المصرية وجهة جعلتها عاجزة عن أداء الالتزامات ثم هي دبرت مذبحة الاسكندرية ، وتعللت بمسألة الدستور والخلاف بين حاكم ووزير لترسل أسطولها المسلح إلى مصر ثم تضرب به الاسكندرية دون أن يكون لها حاجة قوية تثبت بها وجه الغدر أو الحالة القاهرة ، إذ لم تكن الحالة القاهرة موجودة فعلاً ، أما عن الديون فقد ثبت أن مالية مصر كانت تسمح بسداد عدة ملايين من الدين نفسه فضلاً عن فوائده

ومذبحة إسكندرية قد دبرها الأسطول الذي ثبت فعلاً إنه حمل معه إلى مصر الأسلحة ووزعها على الأجانب وحرّضهم على الشعب كما ثبت أن المجرم الأول هو شقيق خادم القنصل الانجليزي في الثغر أما احتجاج سيمور على ترفيم الحصون فقد برهنت مصر بالخطاب الكريم الذي أرسلت به إلى سيمور عن ضبط النفس البالغ ونزول عن بعض الحقوق رغبة في اتقاء التصادم ولكن سيمور بالرغم من ذلك ضرب الاسكندرية

ثم احتل الانجليز بعد ذلك البلاد وهزموا عرابي غدرًا وغيلة ، وليس حرباً ومواجهة ، فقد خدع بجياد القناة وطن أن إنجلترا دولة تخدم الموائيق والمعاهدات فزقت إنجلترا حياذ القناة وتمكنت من الوصول إلى القاهرة بفعل بعض الأذئاب الذين كشفوا للانجليز عن عورات بلادهم طمعاً في نضار الغاصب وسارت إنجلترا على طريقة عجيبة ، هي صورة واضحة من صور الغدر

أخذت إنجلترا تعلن على السنة رجالها الرسميين عن رغبتها في الجلاء السريع عن مصر وظلت تعتذر عن وجودها في مصر بإعادة سلطة الخديو وتنظيم مصر بعد الثورة ودخلت في مفاوضات الجلاء مع تركيا لأحد أمرين: إما أن تنما المعاهدة فيكون ذلك صكاً شرعياً بالاحتلال تعتمد إنجلترا على شروطها القاسية الظالمة وإما أن

تفشل فتكون بذلك قد أظهرت حسن النية ودارت موقفها، تفعل انجلترا هذا كله أمام العالم في الوقت الذي كانت تعزز مركزها في مصر وتثبت دعائم الاحتلال وتوجه الحياة توجيه الرغبة في البقاء الطويل والاستعمار المكتسح، ويظهر ذلك جلياً من بعثة دوفرين وتقريره، ومن تلغرافات جرانفيل، من املاء الرغبة على مصر بإخلاء السودان، ثم استغلال الثورة للبقاء في مصر بعد أن نبخرت حجة تثبيت سلطان الخديوى وبعد أن عملت انجلترا نفسها على التأثير على هذا السلطان ومقاومته عند ما عزل الخديوى مصطفى فهمى في وزارته الاولى .

وكان موقف انجلترا دقيقاً بالنسبة لتركيا فتركيا هي الولاية الشرعية على مصر وقد ظلت انجلترا تبرر تدخلها بالحجج الواهية حتى أعادت فتح السودان باسم مصر وانجلترا معا لتجعل من ذلك وسيلة للبقاء في السودان أيضاً .

وأعانها ضعف تركيا « وود » فرنسا على استدناء الظروف التي تمكن لها من السلطان المطلق ، هذا السلطان الذي وضع وتكشف بروحه الصارخة الطاغية بعد عقد الاتفاق الودى وأسفر تماماً عند قيام الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وانضمام تركيا إلى خصوم انجلترا .

فقد انتهزت انجلترا الفرصة السانحة وأعلنت الحماية على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ بتبليغ جاء فيه : (يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا فقد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته ، وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ، وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية مصالحها وأهلها) وهكذا نفذت انجلترا رغبتها على وجهها الصحيح بعد هذا النضال الطويل .

وليس في حكم أى وضع دولى أو شرعى ما يبرر أن تفعل انجلترا ذلك ، وأن يكون دخول تركيا الحرب مما يسوغ لبريطانيا أن تضع حمايتها على مصر .

والواقع أن هذه هي الحلقة الكبرى من الاحتلال الانجليزى في مصر وهو العدوان السافر الذى لم يجد في طريقه مقاومة ولا معارضة بعد أن جردت مصر أولاً بأول وفي مدى ٧٤ سنة منذ عقد معاهدة لندن ١٨٤٠ إلى ١٩١٤ من كل سلطان وجيش وكيان وطنى وقد انتهت انجلترا إلى مواجهة المسألة الإسلامية التي يثيرها تمزيق انجلترا للعلاقة الروحية بدولة الخلافة فقالت « ولا أرى لزوماً أن أؤكد لسموكم — إلى السلطان حسين — بأن تحرير حكومة (إنجلترا) لمصر من أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية في الآستانة لم يكن ناتجاً عن أى عداوة للخلافة .

فإن تاريخ مصر السابق يدل في الواقع على أن إخلاص المسلمين المصريين للخلافة الإسلامية لاعلاقة له البتة بالروابط السياسية بين مصر والآستانة

وأن تأييد الهيئات النظامية الإسلامية في مصر والسير بها في سبيل التقدم هو بالطبع من الأمور التي تهتم بها حكومة جلالة الملك مزيد الإهتمام ،

وهكذا تحاول إنجلترا أن تؤثر على مشاعر المسلمين بأن تفصل العلاقة السياسية بين مصر والامانة وبين العلاقة الاسلامية بين مصر المسلمة بدولة الخلافة

مصر بذرة اليقظة

وهذا ما يؤكد لنا ما ذهبنا إلى وما نحن بسبيل تأكيده من أن مصر وقد كانت في ذلك الوقت البذرة الأولى للنشاط واليقظة ولما كانت بموقعها الجغرافي وروحها الاسلامية التي ظهرت في جلاء ووضوح في مقاومة عمر مكرم لثابليون وعزله لخورشيد وتعيينه لمحمد على ورده هجمات إنجلترا سنة ١٩٠٧ في رشيد دون الجيش الرسمي .

هذه الروح الاسلامية التي برزت ولعلت وأثارت الدول الأوروبية في نفارين وفي إيدنه وفي نصيين وفي إقامة محمد على بحد السيف للامبراطورية العربية في الوقت الذي لم يكن هناك صوت إسلامي واحد مرفوع ، وفي الوقت الذي كانت تقاسي فيه تركيا ختام حياة طويلة مضطربة هذه الروح الاسلامية القوية التي عمدت الدول على الوقوف في وجهها صفا واحداً متناسية خصوماتها وألحت عليها حتى هدمت محمد على وجردته من مملكته المترامية الأطراف وألحت على خلفائه بالمؤامرات والديون حتى أوصلتها إلى ماوصلت اليه من ضعف مكن لانجلترا من إحتلالها والسيطرة عليها واذابة روحها الاسلامي في محيط متلاطم من الظلم والاضطهاد والفاقة .

صحيح أن الحركة التحريرية الوطنية ظهرت في مصر سنة ١٨٩٥ بظهور مصطفى كامل وقد تداولت هذه الحركة عوامل القوة والضعف والنجاح والمقاومة حتى أثمرت ثورة سنة ١٩١٩ فكانت من آثارها الفعلية .

وصحيح أن الغاصب استطاع أن يقاوم هذه الحركة الوطنية الخالصة الصريحة المطالبة بالجملاء الشامل بحركة أخرى هي حركة « المعتدلين الذين يلتقون بالانجليز في منتصف الطريق » والذين أسلم لهم قياد الأمور في مصر بعد ثورة ١٩١٩ والذين نقلوا الحركة التحريرية الوطنية الصريحة إلى حركة سياسية حزبية كان لها أبعد الأثر في التمزق الشعبي ، والتحول الوطني وضعف المقاومة .

ولكن حركة التحرر الوطني لم تكن حركة إسلامية خالصة وإن كانت في أول أمرها تصطبغ بصبغة اسلامية عثمانية تستمد من الباب العالي والسلطان لامن الاسلام نفسه والخلافة ذاتها ولقد كانت ربح القومية قد هبت على أوروبا ، ووصلت إلى الشرق واستغلت فيه استغلالا سينا في ظروف حالكة كانت الشعوب إزاءها ضعيفة عن مقاومة المستعمر أو مواجهة التيارات الفكرية وليست لها المعدة الاسلامية القوية التي تهضم كل ما يواجهها من حضارات ومذاهب فتستقيها وتحيلها إلى كيائها وتأخذ خيرها وتلفظ شرها .

ولذلك ضعفت الروح الاسلامية في مصر ، وقاومها حزب الأمة الذي كان يدعو إلى القومية المصرية الضعيفة ، وهو اتجاه لم يبين صدق الداعين إليه ، إذ كان يهدف إلى محاصرة تركيا الاسلامية لحساب إنجلترا الصليبية . . . فيا لها من مصرية (١) .

(١) كان هذا الحدث في مبعث الحركة الوطنية الاستقلالية في وادي النيل .

الفضائل بين العرب والآل

obeykandi.com

مكان تركيا العثمانية من المسألة الإسلامية

لاشك أن (تركيا العثمانية) هي أم المسألة الشرقية ولاشك أيضاً أنها إلى مفتاح القرن العشرين كانت أخطر منطقة من مناطق النفوذ الإسلامي ، ومن أبعدها أثراً في المسألة الإسلامية وإن كنا قد قدمنا (مصر) عليها في الترتيب الموضوعي فإنما كان ذلك لأن نوازع الاستعمار كانت أسبق إلى مصر بالاحداث الضخام منها إلى (تركيا العثمانية)

ولا يمنع هذا من الاعتراف بأن الاستعمار والتغريب زحفاً إلى تركيا مبكرين أول ما زحفاً إلى الشرق الإسلامي ولكن الاستعمار كان بمضى حينئذ ، وكان يحاول أهله ودعائه لإلحاحه أي حركة بارزة يكون لها الأثر في كشف مؤامرتهم الرهيبة قبل أن تستفعل أثارها وتقوى جذورها

في مفتاح القرن السادس عشر بدأت تركيا العثمانية تتألق كدولة حربية ذات صبغة إسلامية في الشرق فتأخذ مكانها في العالم وتمتد من مصر والمغرب والجزيرة والعراق وسوريا وتستقر في شبه جزيرة آسيا الصغرى وتلح بالزحف على أوروبا الشرقية حتى تصل إلى أبواب فيينا ويضطر زحفاً في آسيا حتى يمتد جناحها الأيمن إلى حدود الهند على المحيط وجناحها الأيسر إلى الدار البيضاء على المحيط أيضاً

ومهما يقال عن عنف الحركات العسكرية في الزحف والفتح وخلقها من الروح الإسلامية الرجعية السكريدية فإن تركيا قامت على التراث الإسلامي والدولة الإسلامية أربعة قرون كانت إلى مفتاح القرن العشرين لا تزال موضع الخوف والهيبة من الغرب المستعمر الزاحف

وإن كانت هذه إلا ربعاثة سنة في الواقع من أشد سنوات الركود والضعف والمهانة في تاريخ الإسلام كله فقد ظلت تركيا تغط في غفلتها وتطوى على نفسها حتى أفاق أخيراً على واقع مؤلم لا يستطيع معه تدارك الصدع أو علاج المرض مما انتهى بالدولة الإسلامية بعد الحرب الكبرى الأولى (١٩١٩) إلى المؤامرة العجيبة التي مزقتها تمزيقاً

والواقع أن الهند الإسلامية كانت قد طويت في إستعمار الإنجليز المبكر للهند وكذلك امتحنت مراکش بالاستعمار سنة ١٨٣٠ وابتليت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وسيطرت البعثات الاستعمارية على شواطئ جزيرة العرب الجنوبية وعلى شواطئ الخليج الفارسي مبكرة أيضاً وسعى الاستعمار إلى إيقاد نار الخصومة والتنازع بين الشريف حسين والملك أبو السعود في شبه الجزيرة وألب القبائل الأخرى مع إحداهما أو ضد

وعمل أيضاً على إثارة الخلاف وتوسيع شقة بين العرب والترك فقد كان الخلاف بينهما من أيسر الأمور لو قصد إلى حلة بالرفق والانهاء والحكمة من الجانبين ، ولكن الاستعمار الراغب إلى تمزيق هذه الوحدة سعى

إلى إهاجة الخواطر هنا وهناك بالفتن والدسائس حتى أصبح من غير الميسور وجود (تفاهم) بين العرب والأتراك، ثم جاءت الحرب الكبرى الأولى فانطوى الأتراك تحت لواء المانيا وتعاون العرب مع الحلفاء على قواعد محدودة، واتفاق مكتوب، وختمت الحرب بمأساة تمزيق الوطن الاسلامي والاتيان على البقية الباقية فيه، وصار إلى دويلات صغيرة متناثرة أقيمت بينها الفواصل والقواطع والسدود

وتسلطت إنجلترا في أماكن نفوذها، وتسلط إيطاليا وتسلطت اليهود وخرجت تركيا من نطاق الوطن الاسلامي وأثرت أن تكون دولة غربية لحماً ودماً...

وهكذا تبدد العقد المنضود الذي كان موحداً إلى خلافة واحدة وإن لم تكن هذه الجهة في واقع الأمر إلا وحده صورية، صاحبها لون عنيف من الجور والضعف والظلم وانصراف شامل عن رعاية الأفراد والأقطار فقد تركت الأوطان لحكامها الطلبة يحكمون الناس على الوضع الذي يرونه ولم يكن يخرج عن الاصرار العنيف على جباية الضرائب دون تقدير للارهاق أو رعاية للظروف، والواقع أن العوامل التي قضت على الدولة الاسلامية وفرقتها كانت كثيرة ومنوعة وكان اظهرها غفلة تركيا عما حولها وبجفافها لروح التطور والنهوض ومسايرة الزمن

ولو درست كل عيب من عيوب قصورها أو تقصيرها الكثيرة المتعددة لوجدت أن الانصراف عن الفكرة الاسلامية العملية التنفيذية كان السبب الأول لهذه المضاعفات، وأن تركيا العثمانية دولة الخلافة لو أخذت بالاسلام عملياً لا - سوريا - لاستطاعت التغلب على كل ما اعترض طريقها من عقبات

ونزعه القومي التي هبت ريحها على أوروبا ثم امتدت إلى الشرق في أواخر القرن التاسع عشر كان في الأماكن التغلب عليها لو عولجت الأمور على الوجه الذي شرعه القرآن ونفذه السلف الأول

لقد استطاعت أوروبا أن تستغل الطوائف المختلفة والأجناس المتنوعة والأديان الكثيرة والمذاهب المتعددة فتثيرها وتعينها على التمرد، ولكن هذه العناصر كانت مهيأة فعلاً للثورة والتألب على الخلافة وانها كانت راضية رضاء العجز وساكنة سكون القصور فقد كانت تقاسى ألواناً عنيفة من الظلم والعسف والتجاهل والتحامل فلما أثبتت ثارت ولما أعانتها الدول القوية - الراغبة إلى الانتقام والزحف على الكيان الاسلامي وهدمه - تمردت وتجرأت وحطمت...

ولو لقيت هذه الأقليات الرعاية التي قررها الاسلام لها وكفلها وتعهدها - من دولة الخلافة الاسلامية لعاونت على حمل التبعة وإقامة البناء ولكانت للكيان الاسلامي كأهله - إخلاصاً ورضاً وطمانينة وهكذا تحمل الدولة العثمانية مسؤولية تقصيرها بتعطيل أحكام القرآن وإذاعة روح الخود والضعف في أنحاء الإمبراطورية الاسلامية

زحف الأتراك العثمانيون في فجر دولتهم على أدنة فالقسطنطينية فبلغاريا فبلغراد فبودا حتى وصلوا إلى المجر وحاموا حول فينا يحاصرونها فيشددون عليها الحصار وبهذا الزحف المنتصر القوى بدأ الأتراك العثمانيون

باسم الاسلام يواجهون روحاً أوروبية عداوية ، هذه الروح ذات مسحة دينية تؤازرها الكنيسة وتلبس لونا صليبيًا وكان حصار (فينا) سنة ١٦٦٧ م أول هزيمة منى بها الأتراك في عهد محمد الرابع في (سان جوتارد) حتى أن هذه الهزيمة كانت موضع الدهشة . ومن هذه الموقعة بدأ تاريخ المسألة الشرقية ، وبدأت بقضة أوروبا وبدأ ضغطها على الأتراك .

ارتد المسلمون عن فينا وسقطت المجر في أيدي الأوروبيين وكذلك سلبت (بلغراد) وهذه أول علامات الهزيمة وبوادر الانقراض .

وإلى سنة ١٦٨٥ استعاد البنادقة (كريت) و (الموره) وأخذت روسيا (آزوف) وتمكنت من سلطة الملاحة في البحر الأسود في مطلع القرن الثامن عشر .

بلغت الخلافة العثمانية قمة المجد في عهد سليمان القانوني فلما مات سنة ١٥٦٦ بدأت الدولة التركية في الانحدار ومن ثم ساد الدولة العثمانية ظلام دامس بانقباضها عن نفسها وغفلتها عما حولها وبرزت روسيا إلى المجال الدولي واستفحل أمرها وتطلعت طامعة إلى انتهاب البوسفور ، وزحفت انجلترا وهولندا وغيرهما بالقناصل والامتيازات إلى قلب العاصمة الإسلامية فكان لها حق توجيه دفة سياسة تركيا في أغلب الأحيان

وأثارت هذه الدول فتناً وفلاقل متواصلة في البلقان والمجر وبولنده وهددوا الدولة ألام بالثورات العنيفة وأعان على استفحال ذلك ، ضعف الجيش وانحلاله وظلم الولاة وطغيان أمراء البلاد واستبدادهم واقتصرت العلاقات بين عاصمة الخلافة وبين جسم الامبراطورية الواسع الفسيح علاقة جباية وتبعية ضريبية ، لها أتاوتها المعينة في وقتها المحدد دون عمل على إصلاح أو تجديد مما أعان على استطارة الأوبئة واستفحال الأمراض

وشاعت في الشعب الاسلامي روح من الذلة والاستكانة والاستسلام إلى هذا الظلم الصارخ وقامت حياة المجتمعات على شريعة الأسماك يأكل قويا ضعيفا دون رحمة أو عدالة وقصرت مهمة الحكام على سلب الشعب وتجريده وتجاهل فقره ومرضه

وانصرف العلماء من سبيل التوجيه والقيادة ، وحياة الخشونة والتعفف إلى ركب الخلفاء ، واستناموا إلى الحياة الرخية المترفة الناعمة في ظلال القصور

وانصرف الناس إلى هواش الحياة وقشور الدين يتناقشون فيها ويتنازعون حولها ويتجادلون حول فروعيات الفقه وفرضيات المسائل

واستفحل داء الرشوة بين الحكام وانصرف الخلفاء أنفسهم من حياة الجهاد والحرب إلى دعة القصور ونعائمها واعتصموا بأبراجهم العاجية وأغلقوا دورهم عن الناس فلم يعرفوا عن أمورهم إلا ما تحمله إليهم الخاشية الظالمة والبطانة الآثمة ، وقد نهى الاسلام عن مثل هذه البطانات وأوصى الملوك والأمراء بالحكام باختيارها وانتقائها وعلل دائما سقوط الدول وتدهور الأمم وفساد الأمور إلى فساد هذه البطانات .
يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء في أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ،

انغمس الخلفاء في الشهوات والملاذ وأترفوا في أبهة الملك وعملوا على إنشاء القصور الواسعة وتعميرها بألوان صارخة من الفتن في الأثاث والرياش ، فضلا عن اقتناء الجوارى والغواني والاسراف في حياة الخلاعة والمجانة

وقد اضطر هذا المعنى واستفحل حتى صارت أدق الأمور وأجلها في (الدولة الاسلامية) تقضى بإشارة من دخیل أو توجيه من جاسوس

وقد اضطر نفوذ الأقليات واتصل تأمر الدول الغربية حتى بلغ أقصى مداه فكانت تركيا العثمانية في أيامها الأخيرة منطقة نفوذ لكل دولة من دول أوروبا ، وكان لفرنسا وروسيا وإنجلترا وجرمانيا امتيازات عجيبة داخلها هي نوع من الحماية أو وسيلة من وسائل التسلط المحجب وتوسيد للطامع الخبأة وتركيز للاحتلال المستتر ونهضة للمستقبل البعيد المظلم الذي ينتظر الشرق الاسلامي الذي كانت تبيت ضده أوروبا كل وسائل الانتقام وقد أجمعت فرنسا الفتن في شرق البحر الأبيض وتفاقت الثورة حتى أدت إلى المجازر العنيفة التي انتهت بتوقيع المعاهدة الفرنسية العثمانية سنة ١٥٣٥ وبها تعترف تركيا بحق فرنسا في حماية جميع النصارى اللاتينيه وبحماية المنشآت الكاثوليكية والأماكن المقدسة كذلك - وتشمل حماية الروم واليونان والكلدان والأرمن والموارنة ولم يقف أمر هذه المسألة عند هذا الحد ، بل إن هذا الخلاف تجدد مرات أخرى وفي سنة ١٧٤٠ بدأ نضال فرنسا وروسيا حول حق الامتيازات وعقدت معاهدة (فيتازجة) سنة ١٧٧٤ التي منحت قيصر روسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس أى الروم غير الكاثوليك والأرمن الغريقورين واستمر الخلاف بعد ذلك على أساس حماية روسيا للروم الأرثوذكس وحماية فرنسا لللاتين وقد نالت روسيا بهذه المعاهدة أراضي واسعة في شمال القدس وعملت على معارضة البابوية في مساعيها المتواصلة لتوحيد الكنيسة الشرقية وقد تضمن مؤتمر برلين اعترافا بحقوق فرنسا التقليدية في الشرق واعتبر غليوم نفسه بعد زيارته للقدس سنة ١٨٩٨ حاميا للكاثوليك الألمان

وتغذى عوامل حرب القرم التي قامت في ذلك الوقت إلى هذا الخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس على الأماكن المقدسة وقد أرسلت فرنسا إلى الشام جيشا سنة ١٨٩٠ بحجة مساعدة الدولة العلية في قمع الفتنة التي أحدثها الخلاف بين المارون والدروز

وقد وضح جليا أن هذه التعلات الطائفية ، إنما كانت تؤججها أوروبا وتثيرها هذه الدول في إيجاد ثلمات واسعة كثيرة في جسد الدولة العثمانية ، هذا الجسد الهزيل ، بغية القضاء عليها ، وقد عرف أكيدا أن ثورة البلقان واليونان والهرسك ، وكل هذه المناطق الأوربية إنما كانت عوامل فتنة صليبيه أعدت لتزيق الدولة العلية حتى كان من شروط ثوار البوسنة والهرسك للهدنة والتسليم والكف على الثورة (أن تعطى الدولة العلية نصف الأراضي التي بيد المسلمين) وهكذا تدخلت الدول الأوربية في شئون الدولة العلية باسم المسيحيين المحكومين وهكذا ألبت أوروبا الصليبية الدول في البلقان وأحدثت ثورة الأرمن ودست نفسها في حوادث كريد وتساليا باسم دعوى حماية المسيحية في الشرق

روسيا

روسيا هي العدو القديمة لتركيا منذ غزو محمد الفاتح لأطرافها وتحويل كنيسة أيا صوفيا مسجداً للمسلمين ولعلها أقوى الدول الأوروبية عداوة لتركيا في القديم والجديد ، فهي الخصم المتأخم المتطلع في بقضة وتحفز نهضت روسيا القيصرية (روسيا بطرس الأكبر) وتطلعت إلى تركيا المتراجعة المهزومة فزحفت حتى وصلت إلى البحر الأسود

وزحفت جنوباً مخترقة مضبات الفزير فوقعت في أيديها تركستان وأسست ميناء (كراسنوفدسك) على بحر قزوين سنة ١٥١٦
وزحفت في آسيا إلى الشرق عبر سيبيريا حتى وصلت إلى ساحل المحيط الهادى وأنشئت ميناء (فلاديفستك) سنة ١٧١١

وأصبحت فارس إذ ذاك بين جناحيها وبدأت تزحف إلى قلبها وأعانت روسيا على كثير من الاضطرابات والاشتراك مع إنجلترا في الخفاء تأمرا على الدولة الإسلامية

وفي هذا يقول صاحب كتاب (المسألة (١) الشرقية) — (وبديهي أن روسيا كانت ترمي إلى إضعاف تركيا بالاضطرابات والثورات والحرب مع أمم البلقان حتى إذا ثبطت عزيمتها وقلت هممتها تحولات ضدها برجالها وقوتها وهي سياسة لا يمكن لمؤرخ عادل أن يقول عنها أنها سياسة شريفة ، وهذا حق فإن روسيا هيجت ضدها البوسنة والهرسك والجليل الأسود وصربيا فقام البلغاريون في وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل المسلمين فأتوا من الفطائع والجرائم ما لا يستطيع وصفه قلم

وكذلك استعدت صربيا والجليل الأسود لمحاربة الدولة فاتحد أمير هاتين الأمارتين ضد الدولة وحشدت الجنود بكثرة وأرسلت روسيا ضابطاً من أمهر ضباطها لقيادة الجيش أما موقف إنجلترا من الدول العثمانية فقد كان صورة من صور النفاق الصريح ، شأن إنجلترا دائماً في كل مواقفها ، ودون أى تقدير لكرامة أو رعاية لحرمة . ووقفت إنجلترا موقف النفاق تساعد روسيا في الحرب التي تشنها على تركيا كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصداقة لتقف على أسرارها وربما أطلعت روسيا عليها

وقد عرضت إنجلترا على الباب العالي أن يتوسط في الهدنة بينه وبين روسيا في الوقت الذي كان لها في أسطول روسيا سفناً تقاتل الأتراك ١

وعندما شنت روسيا حرب ١٦ إبريل ١٨٢٨ على أثر وصول محمد علي إلى جزيرة الموره أعلنت إنجلترا عداوتها بمساعدة اليونانيين واقتحم أسطولها مياه الشرق يهدد مواثيقه كإعرض (بالمرستون) على الدول الأوروبية أن ترسل جميعها إنذاراً إلى مصر تطالبها فيه بسحب جنودها من الشام وقد عملت على توقيع اتفاقية ١٥ يوليو ١٨٤٠

التي تضمنت مطالبة مصر برد كريد ويدت المقدس واطنه ، وكان ذلك عند ما رأى الانجليز روح الاسلام تستيقظ وترخف على يد محمد علي وهم بسبيل سحق القوة الاسلامية الرابضة في عاصمة الخلافة وقد أدى ذلك إلى أن يلجأوا على محمد علي حتى يحطموه لأنه من عناصر اليقظة في الوقت الذي أبقوا فيه على تركيا لأنها كانت في طريق القضاء

أما فرنسا فقد أدعت طويلا أنها حامية الكنيسة في الشرق وباسم هذا الادعاء الباطل زحفت إلى لبنان وأنشأت فيها معقلا ضخما من معاقل الثقافة الفرنسية بالسكنائس والجامعات والمستشفيات وكان لها في تركيا مركز ممتازا منذ سنة ١٥٣٥

وكان لها في مصر المحاولة الاستعمارية الأولى بالحملة الفرنسية في ١٩ مايو ١٧٩٨ وقد عملت بعد ذلك على إنشاء قناة السويس بغية توطيد مركزها في مصر .

وقد أثبتت فرنسا فشلها الذريع في كل حركة استعمارية قامت بها فلم تترك لها في مكان ما أي أثر يحمدها أو يشكر وهي لم تترك في مصر إلا قانونها الوضعي ، وقد كانت صداقتها لمحمد علي صداقة كاذبة فقد تخلت عنه في أدق اللحظات وأخرجها ، فضلا عن أن هذه الصداقة كانت سببا في خصومة (بالمرستون) له وقد حالت دون تبادل الثقة بينهما وقد سعى إليها محمد علي طويلا

وقد عمل الفرنسيون على خداع المصريين طويلا وتكاد أحداث التاريخ تثبت أن فرنسا قد أسلمت مصر للانجليز وإنها كانت عوننا للانجليز عينا . .

ولا شك أن محاولات فرنسا في مصر هي محاولات صليبية ، ولا ريب أنها خصومة للإسلام فإن فرنسا لا تزال تذكر محاولاتها الأولى سنة ١٢٥٢ م وكيف أسر المصريون لويس التاسع بالمنصورة

القرن التاسع عشر

أهل القرن التاسع عشر على الامبراطورية الاسلامية وهي سادرة في غفلة عميقة أما مقرر الخلافة (الباب العالي) فقد كان يقاسي ألوانا عجيبية من المؤامرات والدسائس ، فقد كانت تركيا تتخبط وتتآكل وتلتهمها الاطاع من كل مكان ، وكان قد مضى على ذلك قرن كامل من الزمان بل يزيد ، وقد حاولت تركيا محاولات إصلاحية كثيرة ، مهما يكن من شأنها ضعفا فانها كانت إقرارا واعترافا بالقصور ، ولكن الدول الأوروبية كانت تعمل دائما على عرقلة كل إصلاح وإقصاء المصلحين واضطهادهم وقد بلغ قدرهم أن تحكموا في توجهه دقة السياسية في قلب عاصمة الخلافة

وباسم الامتيازات وبسلطان النضار عملت أوروبا على ألا يتم إصلاح ما اوتدخلت فرنسا وانجلترا بين السلطان ورعاياه باسم حماية بعض الطوائف ، وكان عمل روسيا هو إقلاق الدولة إقلاقا دائما لا ينقطع وكانت ثورات الموارنة والدروز والنصرية في الشام لا تنقطع ، وكانت الطوائف المسيحية هناك تتصل بأوروبا وتوثق علاقاتها ، وكانت أوروبا تستغل هذه الطوائف وتعينها على الثورة والتمرد ، وكان للانجليز صلة (بعكا) وكان الأسطول الانجليزي دائما يحاول أن يحمي صيدا وعكا

ولعل لهذه صلة قديمة بالنزاع بين الاسلام وخصومه من الغرب فقد أبلى الدروز قديما مع المسلمين في الحروب الصليبية وأبلى الموارنة في جانب اللاتين ومن يومها انعقدت الصلة بين الفرنسيين والموارنة من أهل لبنان حتى أن لويس الرابع عشر أدعى الحماية على المارونيين وشملهم بعطف واضح صريح وقد قامت في تركيا نهضة (سلفية) في مفتح هذا القرن نعلها كانت صدى للوهاية أو مقاومة لها وقد نادى بها (كتشى بك) ولكنها لم تنجح ولم تستمر

وعند الخليفة عندما استفحلت روح الخلاف بين الطوائف - بتأجيج أوروبا - إلى إصدار بيان يقول فيه (أيها المسلمون والنصارى واليهود : إنكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد وأن السلطان يسوى بينكم جميعا) ولو أن هذا الخليفة كان يفقه دينه ويحرص عليه لما تمكنت هذه الفتن من الاستفحال ولما احتاج الناس إلى هذا البيان التافه ولو وجد الخليفة من الاسلام ما يرضى هذه الطوائف ويملاقلها بها حبا للدولة القائمة في تعاليمه من عدالة ورعاية ومساواة وبدأت دول أوروبا تسمى (تركيا العثمانية) دولة الرجل المريض وتحاول كل منها أن تسبق في أن يكون لها النصيب الأول في تركته ، وهكذا غلام رجل الاستعمار وتنافس الدول على هذا الشرق الاسلامي المبيض الجناح وأنفذت هذه الدول وزرائها وجواسيسها إلى قلب القصور وكان منهم الرجال والنساء وقد وصل هؤلاء ووصلوا إلى التجسس على الخليفة نفسه وإحصاء حركاته وأنفاسه وانصرف الخلفاء فعلا عن العمل لأوطانهم وعكفوا على بناء القصور والمساجد وزخرفتها وإغداق الآلاف المؤلفة على هذا الزخرف وعلى هذا الفراش بأنواعه من حرائر وستائر .

ونعم الخلفاء في داخل قصورهم الشم العوالى ، هذه القصور المغلقة التي لاتصل إليها صيحات المظلومين ولا أنات البائسين يمثل هذه الألوان من الترف وبهذا المتاع من الطنافس والمذهبات من عروش فارسية وتيجان مرصعة بالماس وأحجار ثمينة من اللؤلؤ والمرجان والعقيق وهذه هي علامة الحضارة عند أفولها والدول عند تدهورها ، وهذه أول بوادر الوهن والضعف والانحلال .

واضطرب مرسل الدول الاسلامية خلال هذا القرن اضطرابا عنيقا ، فنارت اليونان وألبانيا ويوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا وكريت وقبرص والقوقاز واضطربت العراق والشام وفلسطين وتونس والجزائر ومراكش وكانت انجلترا قد وصلت إلى الهند منذ طويل واستقرت فيه وأقامت هولندا والبرتغال على شواطئ الخليج الفارسي وتفجر البلقان بالثورات المتلاحقة وبدأت عواصف النضال بين تركيا وإيطاليا في طرابلس وبينها وبين فرنسا في تونس والجزائر .

ولمع اسم محمد علي وبرز في ميدان السياسة العالمية عندما أرسل أسطوله لاختاد ثورة اليونان سنة ١٨٢١ فهزم الثوار وبدأ القلق يساور انجلترا وروسيا وفرنسا فعقدوا بينهم اتفاقا وأرسلوا أساطيلهم إلى الساحل اليوناني ووقعت معركة (نفارين) التي غدرت فيها الأساطيل الثلاث بالأسطول المصري في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٨ وخسرت فيها مصر ٣٠ ألف جندي ومعظم الأسطول

وقد اضطرر نشاط محمد علي ، الرجل الطاح إلى القيام بحركة إسلامية ، تستفيد بها دولة الخلافة ويقيم امبراطورية عربية إسلامية تضم الأقطار الممتدة من حدود الجزائر غربا حتى ديار بكر وخليج فارس شرقا ومن جبال طوروس شمالا حتى أواسط أفريقيا جنوبا ويدخل في دائرتها الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وبرقة ومصر والسودان والشام والعراق وخليج فارس ونجد والحجاز واليمن، وقد وجه قواته حتى ظفر بالحجاز والشام ووقف يهدد الاستانه سنة ١٨٣٣

ولسكن أوروبا لم تمهله كما فصلنا ذلك قبلا - إذ قسرتة على حدود مصر وأرغمته على تسليم الحجاز وسوريا بعد أن ألبت إنجلترا عليه الدول . وكانت هي أظهر خصومه وأعنفهم ، ولاشك أن ذلك كان مقاومة خصيمة ليقظة كل ماهو اسلامي والحيولة دون ظهوره .

* * *

وتغلغل الاستعمار في المغرب ومصر واستقر في الهند وإن كان قد لبث (احتلالا مقنعا) يقوم على الامتيازات في تركيا والتجارة في الهند وحماية الدائنين في مصر ونزع الأجانب إلى الشرق بغزارة واستولوا على كل مرافق الاقتصاد وعملت حكوماتهم على حمايتهم بالامتيازات التي بدأت منذ أيام سليمان القانوني .

وظاهرت الأساطيل والقوانين والقناصل هذه الحملة التجارية أسميا ، وعملت هذه الدول - المتزاحمة على الشرق في نهم عجيب - كأنها قد وقعت على تركه لا صاحب لها أو ميراث لا وراث له .

ونشرت هذه الدول إلى جانب ذلك ألوان من الدعارة والحرية المفرطة والاستهتار بالأخلاق . وكانت إنجلترا إلى مفتح القرن التاسع قد أججت الخصومة بين الهندوكين في الهند لقد بدت بوادرها منذ تقارعت عليها مع فرنسا (١٧٤٨ - ١٧٥٩) .

ولم يسكن هذا الزحف زحف فتح صريح في أول أمره ، وإنما اتخذ صوراً من التغطية والتعمية حتى يتمكن من الاستيلاء على أطراف الدولة الاسلامية

٢٠ عبد الحميد والجامعة الاسلامية

آلت الخلافة إلى السلطان عبد الحميد (١٨٦٨) واستمرت في قبضته ٤١ عاما حتى غزل سنة ١٩٠٨ بعد أن أصدر الدستور وحاول أن يجعله مظهراً شكلياً

وقد حاول عبد الحميد عند ما أحس روح اليقظة من حوله في العالم كله أن يقاوم التيار لأن يسايره فاشتد في مظاهر العزلة ومقاومة النهضة ، وحاول ألقاء ستار كشيء على كلمات الحرية واليقظة والشورى ، وما إلى ذلك وحرماها على الصحف والمجامع وبدأ يدعو إلى ما أسمياه (الجامعة الاسلامية) .

والواقع أن الخليفة قد تنبه إلى هذه الدعوى متأخراً بعد أن تغلبت على التيار السياسي والاجتماعي في تركيا عوامل

كثيرة، واستفحلت مظاهر عديدة؟ في مقدمتها نزعه القومية التي هبت ريحها من الغرب، والتي أخذت تركيا تستجيب لها وتسرف في هذه الاستجابة فتفكر في بعث نزعه (طورانية) تحي بها أبحاد جنكيز خان وتيمور لنك . وقد كان ظهور هذه النزعة الطورانية دليل أكيد على أن روح الاسلام وقيادته قد عفت وأن تركيا قد تحللت منها نهائيا ، وقد اضطرت الاستجابة إلى هذا المعنى ، حتى أقام مصطفى كامل دولة (تركيا اللادينية ١) فيما بعد تمشيا مع هذه النزعة .

وهكذا جاءت محاولة السلطان عبد الحميد لإعادة الوحدة الاسلاميه مرة أخرى إلى الشرق متأخرة فأصابها الفشل ، ذلك لأن الأقطار كانت قد تفرقت وغلبتها الأهواء وتنازعتها المذاهب والاتجاهات ولم يكن هذا النظام الذى أعد لقيام هذه ائوحدة سليم أو قرآنيا أو قائما على وجهه الاسلامى الكامل ولو أقيم كذلك من أول أمره لنجح واستقر وتفادت تركيا بأقامته ما عرف فى العهد الأخير من عوامل التسلط الاستعمارى على قلب دولة الخلافة وفى عواصم الأقطار وحواضرها .

وقد كان تجاهل روح الاسلام عاملا قويا من العوامل التى مكنت للدول الغربية من السيطرة ومن إيجاد الثغرات التى ألبت الطوائف وهياتها للتمرد والثورة .

وفى عهد الخليفة السلطان عبد الحميد أعلنت تركيا العثمانية بجميع مظاهرها إنها تختتم عهداً طويلا من الضعف والعجز والقصور ، إذ ضاع فى عهده الجبل الأسود وانفصل الصرب واستقلت رومانيا والروم وإيلي وبلغاريا وضاعت قبرص وأخذت تونس وطرابلس واليوسنة والهرسك و باطوم وقارص وإردهان ومصر وتركيا أوربا ومقدونية وكريت وأرمينا .

قضى عبد الحميد هذا العمر الطويل فى فتن وثورات ، وتبين ضعفه حين حصر نفسه فى قصر يلدز فلم يبرحه ، ظهر عجزه حين أحاط نفسه بطائفة من الجواسيس الذين تسلطوا على الناس وأصبحوا إذا نا على كل حركة وكلمة .

وقد قاوم عبد الحميد كل مظاهر الرقى والتقدم الحديث ابقاءاً على غفلة الشعب وحرصا على جهله ولم تنبج دعوته إلى (الجامعة الاسلامية) ولم يحاول استخدام بعض الدعاة الذين كانوا ينتسبون إلى الاسلام إلا كحالة أخيرة لينقذ نفسه من الفشل المحقق فقد كان حكمه الفردى الاستبدادى وغلبه مظاهر الترف والعزلة ومعاشرة الخصيان والغوافى وانتشار الجواسيس وتقريب أصحاب الأوهام والدجالين أمثال أبو الهدى الصيادى مما قضى مبكراً على تركيا .

الجامعة الطورانية

فى منتصف القرن التاسع عشر بدأت تركيا لونا جديداً من الحياة أرادت به أن تستجيب للتطورات الواسعة المدى فكان مما عجل بحثفها .

نعم، فى حالة النزاع الأخيرة للدولة العثمانية بدأ التفكير فى الجامعة الطورانية رغبة فى سد الفروق بنشاط

أنور وكال وجمال ونيازی ومدحت ولسكن الواقع كان أشد قسوة مما يتصورون فإن العرب الذين أحفظتهم الغيرة على محاولة تركيا بقتل روح قوميتهم العربية قد قاوموا هذه الحركة بكل شدة وعنف .

وظهرت الفتنه المندفعة إلى هذه الحركة بمظهرها حين حاولت تترك جميع العناصر المتصلة بدولة الخلافة وإخراجها من حين قوميتها الخاصة ، وذلك في الوقت الذي كانت تركيا فيه مسئولة عن إنماء وتدعيم الوحدة الاسلامية الشاملة .

ونشط شباب الأتراك للحركة الطورانية نشاطاً كبيراً وجندوا له كل القوى حتى لفتوا إليه الأنظار وأثاروا به النفوس واحتدوا في هذه الخطوة حتى حاولوا استبدال الموظفين العرب بغيرهم من الأتراك .

وقدموا نشيد الدب الأبيض في الصباح عن الأذان والصلاة ١

وكان ذلك كله من الأسباب التي أثارت العرب ، وجعلتهم يعملون جدياً للدفاع عن كيان الفكرة العربية من أن تذوب في هذا الطوفان ، وعملوا دائبين على مقاومة الموجة العاتية ومن ثم برزت الدعوة العربية في ثوب المناذاة باللامركزية . .

القومية العربية

ظلت الدول العربية قائمة تحت لواء الخلافة الاسلامية التركية حيث بدت تتحرك نزعتان خلفهما الاستعمار وأعان على تمسكهما ضعف الادارة في تركيا ، وعجز القيادة في مقر الخلافة ، والقصور المتصل عن رعاية الحريات والتمشي مع العوامل الجديدة ، فضلا عن الضعف والجمود الذي منيت به تركيا خلال هذه الفترة . القوميات عامة والقومية العربية خاصة .

ولقد كان لذلك أسباب ظهور وعوامل انبعث ليس من شك أن أولاهاهو تفكير تركيا في القضاء على العصبية العربية جملة بايقاظ نظام مبتدع هو الذي أسمته تركيا بالجامعة الطورانية فتركيا نفسها وهي القائمة على الدول الإسلامية ، والتي هي مقر القيادة لهذه الأقطار والتي يقوم على رأسها خليفة المسلمين تفكر في أن تنقل إلى أن تصبح دولة تركية عثمانية طورانية قحة تحي مجد جبكين خان وتيمورلنك ، ولا تقتصر على ذلك لحسب بل وتحاول أن تسكره العرب على أن يكونوا جزءاً من هذه الجامعة العجيبة ١

وطبعي أن يكون هذا مثار فتنة من جهة ومقاومة من جهة أخرى وأن يخلق رغبة انفصال العرب عن تركيا والعمل الجدى للوحدة العربية . وقد كان أول تفكير للعرب في الحفاظ على كيانهم إزاء تركيا سنة ١٨٩٦ وتوالت بعد ذلك المؤتمرات في باريس وغيرها لوضع الأسس التي يسير عليها تنفيذ هذه الخطط .

ولا يفوتني أن أذكر أن الخطوات التي خطتها القومية العربية والتي انتهت بقياد هذه النهضة إلى الشريف حسين سنة ١٩١٥ لم يكن هو الوضع الطبيعي لبرنامج هذه الحركة وإنما كان إعجالا حملت إليه الظروف التي أحدثتها حرب سنة ١٩١٤ .

وأعتقد أن النزعة الطورانية كانت دسيسة غربية لإيقاد نار التفرقة بين العرب والترك ومحاولة لإقصاء معالم الوحدة الإسلامية عن تركيا وهي دولة الخلافة وعن العرب وهم حملة الرسالة الإسلامية وقد عرف بوضوح أن الإسلام كنظام عالمي شامل يقضى على هذه الدسائس القومية والمذهبية ، وأنه يربط الأقطار والأنساب والقبائل المختلفة برباطه القوى .

ولما كانت تركيا في ذلك العهد قد ضعفت إسلامياً ، وتحملت من معاني القيادة الصحيحة للدولة وأصبحت مذبذبة لاهي بالاسلامية الواضحة ولا بالغربية الصريحة ، وجدت في أوضاعها حتى تخلفت عن العالم كله ، ومنيت بطوائف مختلفة من الدخلاء والمستعمرين المحتجين تحت ستار الامتيازات والحائكين للدسائس ، فقد استطاعت أمثال هذه الفتن الصليبية أن تؤثر وأن تؤثى أكلها وكان من أثارها دعوة تركيا إلى الجامعة الطورانية ، وإضطرار العرب إلى مواجهة هذه الحالة بالدعوة إلى القومية العربية .

واستطاعت إنجلترا أن تستغل هذا الخلاف في الحرب الكبرى ١٩١٤ عندما أعانت الشريف حسين على إعلان الثورة على الأتراك فأنهار آخر سد من سدود العلاقة بين العرب والترك . وبدأ دور الخصومة والحرب ، ولكن إنجلترا الآتمة ما أن تحقق أملها في تمزيق الوحدة بينهما حتى حضرت الثورة في الحجاز واستغلت نتائجها لصالحها فدخلت مع العرب سوريا وفلسطين ثم سلّمت سوريا بعد ذلك لفرنسا واستولت هي على فلسطين .

وانتهى هذا الدور بأنهار الخلافة واعتبرت تركيا نفسها دولة لادينية مما سيأتى تفصيله في موضعه والواقع أن العرب - كما قلت - لم يكونوا راغبين في الانفصال عن تركيا الإسلامية دولة الخلافة فقد كانوا معقولين جداً حين طالبوا بالإصلاح وعودة الحقوق إلى أصحابها ، بالرغبة في تمتع العرب بحقوقهم السياسية بأن يشتركوا في الإدارة المركزية ، واعتبار اللغة العربية في مجالس النواب العثماني وفي الولايات العربية أمراً مسلماً به . والواقع أن العرب كانوا يؤمنون بأن ارتباطهم بدولة الخلافة هو ارتباط الولاية الإسلامية دون فرق بين العرب والترك ولسكنهم لم يثوروا على الأتراك إلا عندما غلبت النزعة التركية القومية على النزعة الإسلامية واضطرد هذا المعنى فوصل إلى أشد مراحل عند ما حاول الأتراك إفناء الصبغة العربية الإسلامية في هذه النزعة العقيم

لم يرق إذن الملك العثماني على فكرة إسلامية صادقة أو سياسية اجتماعية ناضجة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين باباً لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ما عرفوا من المبادئ فضاعت عليهم الإفادة مما كان لهذا الملك من موقع جغرافي فريد في نوعه ، والواقع أن العرب شقوا بالعثمانيين وأن العثمانيين شقوا بالعرب شقاء يدركه كل من يقرأ تاريخ الدول العربية في القرون الأخيرة .

تركيا العثمانية تنهار

بلغت تركيا أوج قوتها في منتصف القرن السادس عشر فكانت الدولة البحرية الثالثة بعد فرنسا ثم بدأت بالتدخل الأوربي تتحول إلى (عصبة تركية) كما يقول شفيق غربال بك والواقع أنه عند ما أقبلت أوربا نحو

الشرق كانت ترمي إلى تمزيق الدولة الإسلامية وقتل الدعوة الإسلامية وقد استطاعت أن تحقق الرغبة الأولى إلى حد ما واستعصت عليها الرغبة الثانية فقد كانت الدعوة الإسلامية لا تزال قوية وقد قاومت مصر باسمها في أيام عمر مكرم وبرزت في شبه الجزيرة بجهاد الوهابيين الأول وتحملت في الحفاظ على الولاء للخلافة الإسلامية باعتبارها رمز هذه الوحدة .

وهكذا ضاعت الدولة وبقيت الفكرة الإسلامية فلم تتأثر إلا خلال القرن التاسع عشر عندما اجتاحت الشرق أعاصير الحضارة الغربية والتفكير الأوربي وتنازعت الشرق عوامل الاستجابة والخصومة بين هذا الاتحاد وهذه الإباحة .

وأثرت فتن الطوائف في موقف تركيا من تبعيتها وقيادتها للاقطار الشاسعة .

ولم تستطع تركيا أن تقيم وحدة إسلامية إذ غفلت عن أصدق معاني الوحدة وهي قيام الدولة على أساس الاحتكام إلى التشريع الإسلامي والدستور القرآني ، ولم يكن ذلك متعذراً ، ولو أتيح تنفيذه لتلائمت الخطط واستقرت الوحدة على قواعد صادقة من الاتباط ، ولسدت كثير الشغرات التي استطاع الغربيون أن يقتحموها باسم حماية الأقليات ، والفجوات التي تمكنوا من النفاذ منها لإثارة الفتن والدسائس رغبة في إقلاق الدولة أو العمل على انهيارها .

ولوتحقق هذا الاتجاه لبعد الخلفاء عن الاسراف ولقامت الخلافة على أساس الشورى لالوراثة ولا انتظمت علاقة الحاكمين بالمحكومين .

ولقد كان أولى بتركيا وهي تعمل في سبيل المحافظة على كيائها الموحد أن ترجع إلى الإسلام وهو الجامع المانع بدلا من أن تلجأ إلى القومية وهي المفرقة الممزقة

وكذلك عجزت تركيا عن المحافظة على الوحدة الإسلامية بين الأجناس والأمم المنضوية تحت لوائها ، بل إنها هي التي أسرعت بنقض مبادئ الإسلام بتفكيرها في مشروع يتعارض معها كدولة (قيادة إسلامية) هو مشروع تترك الأجناس .

وقد عمدت الدول الغربية إلى محاربة تركيا باعتبارها الدولة الإسلامية الأولى فبدت في أفق الحوادث صوراً من العصبية الصليبية الحقاء المتطرفة ، ظهرت بوضوح في الخلاف بين الترك واليونان ووقوف الدول الغربية في صف اليونان ، وفي الخلاف بين مصر والترك وتأييد الدول لتركيا ومعارضتها لمصر .

ولم يقف أمر الخصومة عند هذا بل إن الأجانب في الشرق وقفوا في وجه حركات التحرير والبقظة والوطنية وحاولوا إدانة الحكومات المختلفة بغية السيطرة عليها كما فعلوا في مصر مع مقاومة الزعماء والقادة وقمع نشاطهم التحريري .

والواقع أن حرب الاستعمار الذي أعلنتها أوربا على الشرق الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر واشتدت في أوائل القرن التاسع عشر ، إنما كان تجديداً لمحاولة الحروب الصليبية التي فشلت واندحرت من قبل عندما وجدت جهة إسلامية قوية

فلما بدأت هذه المحاولة الثانية الجديدة تبين الغرب بالاحتكاك بأهم الشرق أن الوقت مناسب لهذا الغزو ونظراً لضعف المقاومة وقد ظل هذا الاستعمار مقنعاً حتى وافته الظروف فأسفر وتحدى . وقد أكد هذا كلام اللورد اللبني في فلسطين سنة ١٩١٧ .

اعتقد الكثيرون عندما اشتعلت نار الثورة في تركيا العثمانية ١٩٠٧ - هذه الثورة التي انتهت بحصولها على الدستور ، إن هذا الجرح لعهد جديد من الإصلاح واسكن الواقع كذب ذلك فقد سحب السلطان عبد الحميد قوة الدستور وسلطانه بعد إصداره بعام واحد مما اضطر تركيا العثمانية إلى ثورة أخرى سنة ١٩٠٩ انتهت بخلع السلطان ونفيه إلى خارج البلاد ولم تمهل الأمور تركيا إلى أن تسير في طريقها البطيء المضطرب فقد عاجلتها الأحداث عندما اشتعلت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وانضوت تركيا إلى لواء ألمانيا ، وانضم العرب إلى انجلترا وانتهت الحرب بسقوط الدولة العثمانية القائمة على الخلافة الإسلامية مأسوفا عليها وكانت تركيا دولة حرب وفتح ولم تسكن مطلقاً دولة إسلامية تقوم على أحكام الإسلام وأهدافه على الوجه الذي يجمع الشمل ويرأب الصدع .

ولأنما تقوم الدولة الإسلامية خلال عصور التاريخ كله على مقوماتها القرآنية من التشريع والجهاد والخلق فإذا ذهبت كان هذا مؤذناً بزوالها وأفول نجمها مهما اتسع ملكها واستطال حكمها .

obeykandi.com

الصّراع بين العرب والإِنجليز

obeykandi.com

قضية العرب بين الأتراك والإنجليز ، قضية لم يطل أمرها فيما بين العرب والأتراك ، فإن النزاع بينهما لم يمتد طويلا ، فقد أهل القرن العشرين وهي في دورها التحضيرى وسرعان ما نقلتها الأحداث إلى مرحلتها الحاسمة باعلان الحرب المكبرى الأولى ١٩١٤ وباشتعال الثورة العربية التي قادها (الشريف) .
وبها انتقل الصراع نوا إلى الانجائز بدلا من الأتراك وما زال يمتد إلى اليوم واعتقد أن هناك ثلاثة عوامل كبرى أعانت على اضطرام الخلاف بين العرب والأتراك .

١ - فكرة الدولة العثمانية في تركيز العناصر التابعة لها لتحويلها إلى دولة طورانية تحيى مجد جنكيزخان وتيمورلنك وتبتعد عن الاسلام .

٢ - بروز حركات الاحتلال والاستعمار في الشرق العربي .

مراكش ١٨٣١ - تونس ١٨٧١ - مصر ١٨٨١ - طرابلس ١٩١١ - المغرب ١٩١٢ .

٣ - فك الأتراك بالنخبة الممتازة من رجالات العرب الأحرار في سوريا ونصب المشانق ونفى مئات الأسر العربية المكبرى إلى الأناضول .

والواقع أن العرب كانوا يعتقدون أن حركة إعلان الدستور العثمانى فى ٢٣ يوليو ١٩٠٨ هى خاتمة دوار سياسى أصاب تركيا عهدا طويلا ، ولكن الواقع كان غير ذلك تماما .

فإن فكرة (الطورانية) التى استبدت بزعماء تركيا قد أدت أخيرا إلى دور من الحدة انتهى بالانفصال والخصومة بين العرب والأتراك بعد أن عاشا سويا زهاء أربعة قرون

وقد عرفت تركيا جيدا أن مقر الحركة العربية الجديدة هو (سوريا) فعمدت إلى إرسال جمال باشا الذى سعى فيما بعد بالسفاح إلى دمشق فكانت تصرفاته القاسية من الأسباب التى عجّلت بحادث أكبر تمزق فى جسد الدولة العثمانية ، فقد شملت أحكام الإعدام والنفي والسجن فى عهده ٣٠٠ أسيرة من أسر الشام خلال شهرين (مارس - ابريل) ١٩١٦ أرسلوا إلى الأناضول وصودرت أموالهم قبل صدور الأحكام عليهم .

ولقد أنشأ جمال ما أسماه (ديوان الحرب) بعاليه ، كان يقدم إليه كل من يرى فيه بارقة ذكاء أو اتجاه وطنى فيأمر بإعدامه للتخلص منه .

وقد بدا جمال باشا عهده بأن خطب خطبة رنانة قال فيها .

(إن الأمانى التركية والأمانى العربية لا يتعارضان مطلقاً ، فالترك والعرب ليسوا سوى إخواننا فى غايتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض ..)

إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء فى اللحظة التى يتجادلون فيها فالنزاع والخلاف بين عمودى الاسلام لابد أن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نيران الاستعمار السلافى)

والمعجب أن جمال باشا عمد بعد إلقاء هذه الخطبة إلى قتل ١١ عربى على الشبهة وقد تفنن جمال فى وسائل القتل والارهاب ولكن ذلك كله لم يثن العرب عن أمانيتهم وثقتهم فى حقوقهم

ولم يفز جمال منهم بطائل وظل العرب رغم هذا كله أقوياء ، وبقيت أسرارهم محفوظة في صدورهم وقد استقبل الكثير من زعماء أحكام العرب أحكام الإعدام وأعواد المشائق بالغبطة والإبتسام والاطمئنان والواقع أن سبب ذلك هو رغبة تركيا في التخلص العاجل من الحركة العربية والقضاء عليها وهي في المهد وكان المعتقد أن فرصة الحرب هي أحسن الفرص لتنفيذ ذلك وقد أعانها على ذلك ما أدركته من نصر أولى على الحلفاء في الدردنيل في ذلك الوقت

وقد عرف فيما بعد من الوثائق التي نشرها البلاشفة سنة ١٩١٨ أنه كانت هناك صلة بين جمال باشا وبين الأرمن وأنهم كانوا بسبيل حمل الحلفاء على الاعتراف به سلطانا على تركيا مقابل قضائه على الدولة وقد أخطأت تركيا مرة أخرى عندما عجزت عن استعمال الكياسة والحكمة مع العرب واستبدال هذا الأسلوب العدائي العنيف بأسلوب آخر تسكسبهم به إلى صفها بدلا من أن تدفعهم إلى مخالفة خصومها

والواقع أن عرب سوريا برهنوا بجهادهم في سبيل تحرير العنصر العربي وعزة الوطن على رجولة صادقة وإيمان ثابت ولاشك أن سوريا هي خبج الزاوية في بناء فسكرة الوحدة العربية وقد وفقت تركيا كذلك موقف الحصومة والتوجس من الشريف حسين فلم يقبل رغبته في العفو عن المتهمين وردته رداً غير جميل

فكانت كل هذه العوامل مجتمعة مادعا (الشريف) إلى التفاهم مع الإنجليز والقيام بحركة يواجه بها هذا الظرف ، وهكذا ألقت المقادير الأمور في يد (الشريف) وعجلت بأمر كان العرب أنفسهم يرونه لم يتضح بعد وأنه في حاجة إلى جهاد وإعداد

عندما اشتد الخلاف بين العرب والأتراك وقدمت تركيا على صبغ هذا الخلاف بالدم في سوريا وإعلان الحرب الكبرى ودخول تركيا في صف المانيا بكل هذا عجل باتصال العرب بالإنجليز وعمل على إسراع العرب - بمجرد الاتفاق بعد المحادثات الأولى التي دارت بين الشريف ومكماهون إلى إعلان الثورة والانضمام إلى الحلفاء ومعاداة الأتراك ومن ثم وقعت المعارك الحربية بينهما

غضب العرب على موقف الترك منهم وتجاهلهم إياهم ، وذلك على أثر محاولة (التريك) التي قام بها العثمانيون وإنشاء جامعة طورانيه تعيد مجد الأتراك القدماء

وبحكم وجود (الشريف) في الحجاز ، وبحكم بروزه في خصومه الأتراك ، ألقت الحوادث الأمور في يده وزاد نقمة العرب واستفزازهم وسوق زعمائهم إلى المشائق والمنافق وقد تيقن الأتراك أن الشرارة الأولى ستندلع في الحجاز فarsلوا إلى حدوده ثلاثة آلاف مقاتل ، في الوقت الذي ظلت فيه دمشق مركز الحركة وقلبها الحي المتحفز

وكان فيصل خلفة الاتصال في هذه الحركة بين العرب والترك وبين مكة والاستانة اتصل (كتشنر) بالشريف في أول الحرب يسأل عن موقف العرب . وقد ظهرت اذ ذاك نيات تركيا في إنضمامها إلى المانيا ، ورغبت انجلترا في مساعدة العرب وأخذت تقدم لهم الوعود للعمل على إنا التهم حرياتهم

في سبيل إنضمامهم إلى صفها وأكدت انجلترا هذه الوعود رسمياً بكتابات تبودلت بين الشريف وممثل انجلترا في القاهرة (مكاهون)

وقد كان خليفاً بالشريف أن يكون أكثر حيطة وحذراً من الانجليز المسكره الدهاء الذين لا يكونون للعرب والاسلام إلا كل عداو وخصومه ، والذين كانوا يريدون أن ينتهزوا فرصة الحرب لتقسيم تركه الرجل المريض وتمزيق هذه الدول الموحدة رغبة في القضاء عليها

وقد ظهرت للشريف منذ اللحظة الأولى عوامل الماطلة والحقد ، فعندما تأكدت انجلترا من أن الشريف مأزوم وأنه قبل أن ينضم إلى الحلفاء أخذت تراوغه في إعطائه وعداً واضحاً صريحاً قاطعاً أو عهداً معلوماً واستمرت المخابرات بينه وبين مكاهون أكثر من عام كامل كان الأتراك خلاله قد مزقوا الجماعات العربية والأحزاب السياسية وسجنوا الكثير من الأحرار

وقد انتهى الإتفاق بينه وبين (مكاهون) وأمد الانجليز الشريف ببعثة عسكرية وكميات من الذخائر وأمدوه بالكابتن (لورنس)

وسيطرت هذه البعثة وسيطر لورنس على الجيش العربي كله وكانت لهم القيادة الفعلية والتوجيه الأعلى وقد استجاب للشريف - عندما أعلن الثورة - الكثير من الشباب العرب من مختلف الأقطار الاسلامية ممن رغبوا في الاشتراك في حركة التحرير واقنعت القوات كل شيء في سبيلها (القوات من العرب والقواد من الانجليز) حتى وصل فيصل العقبة ١٩١٧ ووصل النذى فلسطين في نفس العام

وفي هذا الوقت هاجمت انجلترا مواقع الأتراك في العراق وقد حدثت مصادمات قوية جهة البحرين من القوات الهندية التي دفعت بها انجلترا للاستيلاء على أرض العراق وأبار البترول باسم حماية الهند وأرسات على رأس هذه القوى الاستعماري الطاغية (برسي كوكس) وظلت هذه المناوشات بين الأتراك والعراق من جهة والانجليز من جهة حتى اقتحم بغداد الجنرال مور سنة ١٩١٧ مما سنفصله فيما بعد

المكاتبات

انصل (الشريف) بكتشتر أول الأمر ، فلما مهدت بينه وبين انجلترا ظروف الاتفاق تبودلت المكاتبات السرية بينه وبين ممثل انجلترا في مصر (هنري مكاهون)

(١) وأرسل الشريف كتابه الأول في ١٤ يولييه ١٩١٥ وفيه يطلب الأمير العربي من انجلترا أن تعترف باستقلال البلاد العربية من (مرسين - اطنه) حتى الخليج الفارسي شمالاً . ومن فارس حتى خليج البصرة شرقاً . ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً (مع استثناء عدن) ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى (سيناء) غرباً على أن توافق انجلترا أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين .

وقد ذكر (الشريف) أن حكومته تعترف بأفضلية انجلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية

وقد ذكر أيضا أن الحكومتان العربية والانجليزية يتعاونان على مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظا لاستقلال البلاد العربية وتأمينا لافضلية انجلترا فيها على أن يكون التعاون في كل شيء ، في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

وقد وصل الرد الانجليزي في ٢٤ - أغسطس ١٩١٥ وكان غامضا يتهرب من مسألة الحدود فأرسل الشريف حسين بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩١٥ مذكرة أخرى لجنابه رد (مكاهون) في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ من مكماهون

وبما جاء فيه ، أن إنجلترا مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها الشريف مكة ،

و إن مرسين واسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية محضة فيجب أن تستثنى من الحدود على أساس هذه التعديلات على أن لا ينقص شيئا من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب ، .

و أما الأراضي التي تستطيع إنجلترا أن تعمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضررا بحليفاتها فرنسا فان لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جوابا على كتابكم ،

و إن إنجلترا مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها الشريف مكة ، و تحمي إنجلترا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها ،

و تقدم إنجلترا كل مساعدة أو نصحية تلزم ، وتعاونهم في تشكيل أفضل الحكومات في مختلف البلاد العربية ، وهذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشاره ومعاونه وإرادة بريطانيا وحدها ، .

و أما فيما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فان العرب يعرفون أن قرار إنجلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلا إداريا خاصا ومرافق خاصة للحفاظ على تلك الانحاء من الاعتداء الخارجي

من الشريف

أرسل في ٥ نوفمبر ١٩١٥ يتنازل عن ضم مرسين وأدنه إلى المملكة العربية ويقول ، عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا هي حليفهم لأندهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح وتمديدها لمساعدتهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة .

من مكماهون

وأرسل (مكاهون) في ١٣ ديسمبر ١٩١٥ يقول :

و إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطى كل المساعدات التي في وسعها للمملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تطلب إدارة ودية ثابتة ، ولسنا نرى أن ندفعهم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم

والكنا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدا أن تبذلوا كل مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وإن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان
وإن حكومة بريطانيا قد فوضت إلى أن أبلغكم ودولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا لاتنوى إبرام أى صلح كان ، إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية
وأرسل الشريف في أول يناير ١٩١٦ خطابا إلى مكماهون موافقا على ماجاء في خطابه السالف
وأرسل مكماهون إلى الشريف في ٣٠ يناير ١٩١٦
والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات . فأننا سررنا للحركة التي تقدمون بها لاقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والسكف عن مساعدة أعدائنا ،
من مكماهون

وارسل (مكماهون) في ١٠ مارس ١٩١٦ يقول
« إن حكومة جلالة الملك قد صادقت على جميع طلباتكم . وإن كل شئ . رغبتهم الأسراع فيه وفي إرساله
فهو مرسول لكم مع حامل هذا ، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة إلى مكة وتبقى في (بورت سودان)
تحت أمركم لحين إبتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية كذا كرتتم بالمواقع التي يقتضى سوقها إليها ، والوسائل التي سيكون حاملوا الوثائق لتسليمها إياهم .

اتفاقية (حسين - مكماهون)

وهذا من أهم ما جاء في المعاهدة :

- ١ - تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها على أن تكون حدودها شرقا من خليج فارس ومن أبواب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجمتمعه مع الدجلة عند مصها في بحر فارس ماعدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود في رعاية وصيانة تلك الحدود وتلك الاتفاقية
- ٢ - تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخله كانت ، وبأى صورة في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعد بأى شكل يكون حتى ولو وقع خصام داخلي من دسائس الأعداء قد يساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع هذه الثورات الداخلية وتكون مدتها محدودة أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها الداخلية .
- ٣ - تكون البصرة تحت أشغال بريطانيا لحين يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ويعين من جانبها مبلغا من النقود ترعى فيه حال الحكومة العربية التي هي قاصرة على حصه بريطانيا وتلك المبالغ تكون في مقابلة تلك الأشغال

٤- تتعهد بريطانيا بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتا والذخائر والنفوذ مدة الحرب

٥- تتعهد بريطانيا مدة الحرب بقطع الخط الحديدي من مرسين أو ما هو مناسب من النقاط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها،

الموقف بين العرب والانجليز

١ - أعلن الشريف حسين الثورة وأصدر منشوره إلى العالم الإسلامي في ٢٦ يونيو ١٩١٦ وبدأت الحرب بينه وبين الأتراك وأسرع الانجليز لخصروا الحركة العربية في دائرة ضيقة لا تتعدى الجحاز ، وقد كان الانجليز لا يريدون أن تتسع ويسكن في نظرم أن تؤدي غرضها الذي أرادوه بها وهو قيام الخصومة بين الأتراك والعرب والمعروف جيداً أن غنم الانجليز من الثورة كان أكبر من غنم العرب فقد وضعت يدهم في يسر وسهولة على فلسطين والعراق والشام .

٢ - عامل الانجليز الشريف معاملة سيئة ولقي منهم تصرفات غير لائقة قبل انقضاء الشهر الأول على انصالة بهم بالتسكّر والاهمال ، وقد عرف بوضوح أن الانجليز كلما رجحت كفتهم أهملوه وإذا رجحت كفة الأتراك أجابوا مطالبه .

٣ - أقام الانجليز والفرنسيين العقبات في وجه الجيش العربي عملاً على الحد من توسعه وحاولوا حصره في الجحاز وعارضوا في احتلاله المدينة لسكيلا تتسع الحركة العربية .

٤ - أعلنت الثورة إرتجالاً بغير إعداد لها ، فقد كانت المرحلة الأولى للاعداد والاستعداد لم تتم بعد بل إن الحركة العسكرية نفسها لم تسكن قد اكتملت وتشعبت والتشكيلات الداخلية لم تسكن نظمت بالشكل الذي يسمح لها بالقيام بحركات قوية منظمة وانتقلت المعركة سريعاً من خصومة بين العرب والترك إلى خلاف بين العرب والانجليز وصلت به العراق وفلسطين وسوريا ولبنان غنيمه باردة إلى أيدي الحلفاء .

٥ - ظهر تأمر الحلفاء على العرب واضحاً جلياً وظهر إلى جواره انخداع الشريف وأبنائه بالانجليز وقد استطاع الانجليز أن يضربوا العرب بالترك والترك بالعرب ونجحوا في ذلك إلى حد كبير وكان لذلك أثره في ثورة المشاعر الإسلامية في مختلف الأقطار بالنسبة لدولة الخلافة وانتهت المسألة أخيراً إلى أن استخلص العرب بلادهم وسلموها للانجليز والفرنسيين .

٦ - مع أن كتب (مكماهون) صريحة في أن حدود المملكة العربية الجديدة تشمل فلسطين وسوريا والعراق فقد أنكر الانجليز والفرنسيون على الشريف أن يلقب نفسه (ملك العرب) وبلغوه رسمياً أنهم لا يعترفون به إلا ملكاً على الجحاز وحده ولم يخاطبوه بعد الثورة إلا بهذا اللقب .

وقد بدأت المعارضة في تلقيب الشريف بملك العرب في ٣ ديسمبر ١٩١٦ ولكن الشريف نادى بنفسه

ملكا على العرب ويبيع بذلك وأبرق مكماهون إلى الشريف معربا عن عدم موافقة بريطانيا فأرسل إليه الشريف يقول أنه إنما فعل ما فعل نزولا على رغبة كبار قومه وعلماؤهم وأنه مستعد للتنازل عن اللقب إذا كانت إنجلترا لا تقره
٧ - أصدر (الشريف) بلاغه إلى العالم الاسلامي وأرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية في مصر فجزه الانجليز وقتا طويلا ومنعوا إبلاغه بنصه ثم أذاعوه مغيرا عن أصله بعد أن رفعت منه المعاني القوية التي تحفز على التطوع للثورة .

٨ - يأخذ التاريخ على الشريف أنه عاهد الانجليز على المحافظة على الحكومة الجديدة التي كان يجمع الانجليز أنشاءها وحمايتها وصيانة حدودها على أن يقدم له الانجليز ما يحتاج إليه من مال ونفقه وأرزاق وميرة وسلاح ومعنى هذا إنه قبل انشاء حكومة غير مستقلة تقوم تحت حماية الانجليز .

والواقع أن كثير من اليقطين قد نبه الشريف إلى تأمر الانجليز ومكرهم ودهائهم وآلاعيهم وعدم حفظهم للعهود أو إقرارهم للمواثيق ، وقد درتهم على فسخا والتلاعب بالفاظها ، وتغيير نصوصها بما يتفق مع أغراضهم ولسكن الشريف لم يعبا بهذه التوجيهات واعتقد فيهم الوفاء والاخلاص ولم يقر بغير ذلك إلا بعد أن شعر بوطأة المؤامرة

٩ - يقول الأمير فيصل في ١٥ فبراير ١٩٢٠ في حديث مع جريدة المفيد الدمشقة (لما كنت في لندن ، قدمت صورة من هذه المعاهدة التي تقرر مع الانجليز إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطاني فأنكرت وجودها كل الإنكار وقالت أنه لا يوجد عهد ولا كتاب ينطق بهذا التصريح) وهكذا (لم ير العرب بعد انتهاء الحرب وبعد أن وضع الانجليز أيديهم على العراق وفلسطين وسيلة للخروج من الموقف الذي صاروا إليه مع العرب سوى إنكار هذه العهود وتجاهلها والاعاء بأنهم لم يقطعوها أو لم يتعهدوا بها) .

١٠ - والعجيب أن بوادر الارهاصات بخديعة الانجليز وتأمرهم على المسمين بهذا الأسفين ، الذي حملوا به العرب والأتراك وكلاهما مسلمين على القتال والفناء وكان السكسب فيه للصليبية الانجليزية والفرنسية ، هذه البوادر كانت واضحة ودليها تصریح عزيز المصرى إذ ذاك بهذا التعبير الجرى

« يلوح لي أن الانجليز يريدون القضاء على العرب والترك في وقت واحد وذلك بأن يتركوهما مهمامين حتى ينفوا بعضهم بعضا فلا يرسلون القوى والمعدات لضرب الأتراك الضربة القاضية ولا هم يتركونا وشأننا فيقضى الترك علينا .

١١ - استمرت إنجلترا نحو أربعة أشهر لا تمد الحسين بالقوى والمعدات ، وقد قاسى الحسين خلالها ألوانا مظلة سوداء من مطل الانجليز وتسويقهم فقد عرف أن بين قادة الانجليز من يقاوم الحركة العربية .

١٢ - بدأت الثورة في مكة صباح ١٠ يونيو ١٩١٦ بأن أطلق الشريف رصاصة من قصره على تشلاق الترك فكانت الاعلان الرسمي للثورة العربية .

وألقت الطائرات في سماء جده على معسكر الترك منشوراً جاء فيه .

- ١ - إن مكة المكرمة والطائف أصبحتا في يد دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين بن علي .
- ٢ - الحركة ليست لتأسيس خلافة عربية إسلامية ، وإن العرب لا يسكروهون الترك من حيث هم لأنهم مسلمون مثلهم وإنما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة .

١٣- هذه بعض نصوص من منشور الشريف العام الصادر في (٢٦ يونيو) قد كتبه الشريف حسين بنفسه ووزعه واختره الانجليز وضيعوا معاملته ونشروه مشوها .

١ - الاتحاديون - حادوا عن صراط الدين ومنهج الشرع الشريف ، وسلبوا شوكة السلطان المعظم ، وأسرفوا في أموال الدولة وحملوها الديون الفاحشة ، وفرقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كهلأتريكية بالقوة القاهرة ، وخاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوربية فوقفوا بالدولة موقف الهلكة واتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم ، والتنكيل بالعرب .

نشروا الصحف والكتب التي جاهرت بالطعن في الاسلام ، وانتقصوا الرسول والخلفاء ككتاب (قوم جديد) ، وتحريف نصوص الكتاب والسنة ، وأبطلوا التزام الصلاة ، واستحلوا قتل المسلمين والذميين بغير محاكم شرعية أو حكم .

أما ماخصوا به العرب من الاضطهاد فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة ، حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات بإبطالها من المدارس ومنعها من الدواوين ، قتلوا كبار رجال الدولة العربية ، صادروا أموال مالا يحصى من الناس ، نفوا كثير من الأسر إلى بلاد الأناضول .

١٤- تأمر جمال مع الخلفاء على أساس القيام بحركة انفصالية وسعى لإقامة مملكة يتوارثها أبناءه من بعده وقد دارت بينه وبين الخلفاء مكاتبات وانتهت بالفشل .

١٥- بدأ الخلفاء يتآمرون على العرب بالمفاوضات التي كانت تجرى في سرعة عجيبة بين روسيا وانجلترا وفرنسا لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، وفي الوقت الذي كان الانجليز يحرضون الشريف على الثورة كانوا يقيمون هذه المملكة العربية التي وعدوه بها ، وكانت المفاوضات تدور في القاهرة بين السرمارك (ساكس) المندوب الانجليزي لشئون الشرق العربي والمسيو جورج (باكو) المندوب الفرنسي لشئون الشرق الأدنى لثلاثاق على تقرير مصير البلاد العربية واقتسامها وكان يشرف على هذه المحادثات مسيوسازانوف معتمد روسيا العام في القاهرة .

(٢) كانت رغبة الانجليز في اخراج الساحل الشامى من حدود الدولة العربية الوهمية التي تعاقدوا مع الشريف عليها في كتابهم في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ إنما كان مرماها ومغزاها قبول انجلترا بتسليم هذا الجزء لفرنسا

(٣) اقتنع الانجليز بأنه في الامكان اقناع الشريف بقبول ملك الحجاز فحسب ، وعملوا على عقد تسوية على مسائل سوريا والعراق فيما بينهم .

١٦- سعى الانجليز إلى تعويض الفرنسيين على الساحل - عن أساس التهام انجلترا له - باستعمرة (نيجريا) الغنية في أفريقيا فلم يقبلوا عن سوريا ولبنان عوضاً (تلبية لطلب مسيحيها ورعاية لتقاليدهم وبما لهم من مصالح اقتصادية ومدارس في بيروت)

١٧- وقعت انجلترا وحلفاءها بعد الحرب موقفاً أملتة القوة وحدها ولم يمله العدل فهي قد أعطت وعوداً لفرنسا باحتلال سوريا ولليهود بالهجرة إلى فلسطين وللشريف بإنشاء حكومة عربية ثم وضعت مع تركيا معاهدة سيفر ولكن الذي تحقق من هذه الوعود والمعاهدات هو ما أملتة القوة فقد نفذ اليهود وعدهم بالقوة، وألغى الأتراك معاهدة سيفر بالقوة، واحتلت فرنسا سوريا بالقوة، أما العرب فهم أصحاب الوعد الوحيد الذي لم ينفذ، ذلك لأن العرب اعتمدوا على (حسن النية) الموهوم في انجلترا فكان نصيبهم الاخفاق وكذلك كان شأن المصريين الذين افتتحوا بعد الحرب عهداً جديداً من عهود الصداقة والتحالف فكان نصيبهم ونصيب العرب الغبن والظلم والاحجاف وكما استلبت انجلترا حق مصر في الحرية بعد انهيار سلطة الأتراك بعد أن وعدت خلال الحرب بالمحافظة عليها حتى تسلمها للمصريين كاملة بعد الحرب ، كذلك اعتبر الانجليز اتفاقهم مع الشريف قصاصة ورق ، ولم يتورعوا عن أن يقدموا له مشروع معاهدة بعد الحرب لاتعترف به إلا ملكاً للحجاز فحسب ، وقد ارتاع الشريف فعلا لحادثين خطيرين فجأت بهما انجلترا دون أن يحسب لها حساباً هما : معاهدة سكس باكو التي قسمت سوريا وأعطت منها جزءاً لفرنسا ولتصريح بلفور الذي اباح لليهود استيطان فلسطين

وهكذا تنكر الانجليز لعهودهم التي أعطوها خلال الحرب ، والتي قصدوا بها إلى استغلال العرب والمصريين للقيام بمعاونة الامبراطورية في وقت الشدة فحسب

وقد وصل العرب والمصريين إلى هذه النتائج لضعف خبرتهم بمؤامرات السياسة وللثقة العمياء التي وضعوها في دولة مجرمة آثمة لاترعى عهداً ولا تحفظ وعداً ولا تقول كلمة تصدق فيها إلا إذا كانت القوة هي التي تدفعها إلى تنفيذها

١٨- أرسل الانجليز إلى الشريف بعثة عسكرية رافقت الجيوش العربية في حركة زحفها وعلى رأس هذه البعثة الانجليزى الداهية (لورنس) الذي كان في الواقع قائد الحملة الفعلية وسفير انجلترا الغير رسمي في الحجاز . ويشبه هذا الموقف في نظري موقف الانجليز تماماً في استعادة السودان فقد أرسلوا بعثة عسكرية وعلى رأسها (كتشنر) جعل لها قيادة الجيش المصرى الزاحف إلى السودان وبهذا الجيش المصرى وضعت انجلترا يدها على السودان دون أن يحاسبها كما وضعت انجلترا يدها على البلاد العربية بالجيش العربى دون أن يحاسبها وكأنا قدما الجيوش المصرية العربية ، هذه الجيوش التي جاهدت واستشهدت حتى أعادت البلاد ، لتسلم هذه البلاد إلى الانجليز أخيراً

وهكذا ضرب الانجليز الأتراك المسلمون أصحاب الخلافة بأيدي العرب المسلمين ، وقاتل المسلمون المصريين سكان الشمال إخوانهم المسلمين السودانيين سكان الجنوب ليؤول كل هذا في النهاية إلى انجلترا فتتحكم في أهله ونفرض إرادتها عليهم وتعتبر أنفسها وصية على أصحاب الأوطان ١

١٩- ادعى لورنس طويلا أنه نصير العرب ، وليس هذا إلا الكذب والبهتان ، فإن كل انجليزي إنما يؤدي واجبه للامبراطورية وما أظهاره الصداقة للعرب إلا محاولة التمكن بالخيانة فهي الحيل والأحاييل والأكاذيب يصطنعها الانجليز لتغري العقول وتضلّل الناس ، وما مثل لورنس في الحجاز إلا كمثل بلنت في مصر ومثل (فليبي) ، أعداء يلبسون ثوب الأصدقاء

جاء لورنس ليكون رقيب الانجليز والحلفاء على خطط العرب وعلى تصرفات الشريف وفيصل ، وكان لكل معسكر وجهة فالعرب كانوا يريدون الوحدة العربية والشريف كان يريد تنويجه ملكا على العرب وخليفة على المسلمين وكان بلنت يقول دائما في معرض الدعاية له

لا تخطوا فالدر ينثر عقده ليعود أكل في النظام وأجملا

أما وجهة الحلفاء فقد كانت تتلخص في العمل على تمزيق الامبراطورية الاسلامية وإثارة النعرات العصبية فيها . وهم لهذا سرعان ما حولوا تيار الثورة وسرعان ما قصروها على الحجاز بعد أن أعلنها الشريف بوقت قصير وسرعان ما سار مع الجيش العربي الطامح في الحرية والقوة ضباط الجيش الانجليزي

٢٠- من الثابت الذي لا يقبل الشك أن الانجليز وغير الانجليز كانوا يضمرون تقسيم هذا التراث ، وتمزيق هذه الوحدة القائمة من حدود الخليج الفارسي إلى حدود الأناضول ومن البحر الأبيض إلى الرافدين حتى لا تقوم فيه أمة واحدة ولا تدين بزعامة واحدة

فكما هدم الانجليز الخلافة الاسلامية في تركيا وبقي للناس الأمل في الوحدة العربية الحوا عليها بالهدم رغبة في خلق قوميات قليلة ضيقة ، تتحكم فيها النزعات القبلية ، والدوافع الجنسية وتوقظ الوراثة البائدة كالفرعونية في مصر والفينيقية في سوريا والآشورية في العراق وهكذا

٢١- ظل العرب يجاهدون ثلاث سنوات كاملة فما أن دخلوا سوريا وفلسطين بعد العناء الشديد حتى واجه اللورد النبي (قائد الجيوش الانجليزية) الأمير فيصل بالواقع الأليم وأعلن بأن هناك معاهدة بين انجلترا وفرنسا لتقسيم سوريا وفلسطين والعراق ، واحتج فيصل بشدة ولكن الواقع الأليم كان في اليد التي تفرضه بالقوة وليس في يد المنطق والافتناع والحق الأعزل

٢٢- سافر فيصل إلى مؤتمر الصلح ليقدّم احتجاجه وقد أذن له بعد لآي وجهد في إسماع صوته للمؤتمر ولكن الفرنسيين استطاعوا أن يدسوا إلى المؤتمر أذنانهم في سوريا فقد تكلم (شكري غانم) بعد أن تكلم فيصل وطلب إشراف فرنسا على حكم سوريا وطالب (أميل اده) باستقلال لبنان الإداري تحت إشراف فرنسا وطلب آخر أن يحكم السوريون سوريا

وقد نجحت هذه المؤامرة فأدت إلى اعتبار أن هناك آراء مختلفة واتجاهات متنوعة وتيارات مضطربة فاقترح المجلس إرسال لجنة تحقيق . ولجان التحقيق هذه من أكبر المهازل الاستعمارية التي يقصدها ضياع الحقوق على أصحاب الحقوق وكسب الوقت للظالمين

٢٣- إن (١) طمع الانجليز في احتلال فلسطين والعراق وطمع الفرنسيين في احتلال الشام جعلهم يقاومون تقدم العرب ويعملون على تضيق دائرة عملهم فلا تتجاوز الحجاز ولولاميل الأمير فيصل الشديد إلى إنقاذ الشام وإلحاق جيشه عليه وتهديده بالعصيان لما أجازوا له التحول إلى الوجه ولما وصل العقبة وظل يدور في الدائرة الضيقة التي رسموها له وهي الحجاز

الخلاف بين الهاشميين والسعوديين

الهاشميون من الحجاز . والسعوديون من نجد . وكلاهما سكان جزيرة العرب وبين جزيرة العرب من قديم خلاف وتنازع وتنافس .

والسعوديون أصحاب دعوة ولهم مطامح في أن يكتسحوا جزيرة العرب كلها بدعوتهم ويفرضوها على الحرمين الشريفين ، ويعتقدون أن كل خارج عنها غير سليم في دينه، وكانوا يعتقدون ذلك في آل مكة وكان تزعمهم روح التكريم التي يضيفها الناس على الموقر والقبور ، وما يحوطها ذلك من قباب وشموع وأبنية أما الهاشميون فكانوا يعتبرون أنفسهم سادة الحرمين وأن مركزهم الديني قائم على القرية وأن أمانة مكة وراثتها في أهلهم وقد بلغ أولئك في تشدهم حداً بعيداً وبلغ هؤلاء في مغالاتهم إلى أبعد حد وهذا الخلاف في ذاته قديم منذ سنة ١٨٧٥ فقد كان الشريف غالب يحاول القضاء على عرش آل سعود ودعوته وكان الأشراف يريدون القضاء على أي سلطة أو نفوذ للوهابيين في جزيرة العرب

وأصبحت الحرب سجالات بين (الشريف) و (السعود) وقتاً طويلاً وهاجمت الدعوة أطراف الحجاز مرات وعرف في الأغلب أن حالة الأمن في عهد الشريف لم تكن مطمئنة كثيراً وعند ما إنضم شريف مكة إلى الحلفاء اتصل الود بينه وبين أمير نجد غير أن رغبة الشريف التي أعلنها بجعل نفسه ملكاً على العرب ضاقت (ابن السعود) وانتهى ذلك إلى قطع العلاقات مرة أخرى لاعتراضه على اللقب ، وأخذت المساعي تبذل للتوفيق فلم تصل إلى نتيجة ما

وعقدت إنجلترا لتسوية النزاع وحسم الخلاف بينهما مؤتمر الكويت ١٩٢٣ ففشل وقد كان للدعوة الوهابية بعض أثرها في نفوس القبائل المتاخمة للشريف فأسرعت إلى نجدة سعود وكان موقفها بالنسبة للشريف غير ما كان يتوقع أو ينتظر

وهنا بدأت محاولات سعود لاحتلال الحجاز وقد بدأت في ٤-٦-١٩١٩ لولا أن وجه له الانجليز انذاراً بإيقاف هذه الحركة

أما ابن السعود فقد اتصل بالانجليز في مايو ١٩٠٤ بواسطة (برسي كوكس) المندوب الانجليزي بالخليج الفارسي .

وقد عرف الانجليز منذ ١٩٠٦ أن (ابن السعود) سيكون له في شبه الجزيرة شأن وقد أرسل برسي كوكس في ١٦-٩-١٩٠٦ إلى حكومة الهند مذكرة يطلب فيها وضع سياسة ثابتة مع الأمير وبما قاله أن ابن السعود يساعد الانجليز على وضع حد للقرصنة في شمال الخليج ، وإن تدخل الأتراك في شؤون أواسط بلاد العرب سيدعو إلى توحيد كلمة القبائل تحت زعامة ابن سعود فعلى انجلترا أن تسارع إلى اقتناص هذه الفرصة .

ولكن حكومة الهند أرجأت هذا الاقتراح رغبة في عدم التدخل في الوقت القائم - إذ ذاك - خوفاً من تعكير صفو العلاقات بين انجلترا وتركيا ، ورأت أن يكون ذلك بعد أن يتم تفاهمها مع روسيا على إيران ، ومع تركيا وألمانيا على خط سكة حديد بغداد .

وفي الوقت الذي كان هناك انجليزى يعاون (الشريف) هو لورنس الذي عمل على ادخال تلفيقات الوهم والخداع في نفوس العرب ، كان هناك برسي كوكس نصير ابن السعود والعامل المجد على تحطيم مركز الشريف وقد ظهر ذلك في اجتماع ٢٣ مارس سنة ١٩١٨ عند ما عقد مؤتمر القاهرة للبحث في المسألة العربية برئاسة (ريجنلد) المندوب الانجليزى بالقاهرة ، وقد دافع برسي كوكس عن رأيه في استحالة تكوين إتحاد عربي تحت زعامة الشريف وإن ابن السعود يشك كثيراً في نيات الشريف ، وأن بينهما غير متنافسة ، وأن ابن السعود لن يقبل زعامة الشريف مع اعتراضه على تلقيه بملك العرب

عرف (الشريف) بصلابته ووقوفه في وجه (ابن السعود) وعدم تقديره قوة النجديين وشعورهم ، والنجديون الذين لم تنكسر لهم راية ولم ينكسر لهم جيش فيهم غرور وأنفه وفي الأشراف اصرار على اعتبار (ابن السعود) ليس إلا رجل بدوى أو شيخ عشيرة (١)

وفي سنة ١٩٢٢ سامت العلاقات بين الملك حسين والانجليز عند ما رفض توقيع المعاهدة التي قدموها إليه ، وكره الهنود موقفه من الأتراك ، وكان تجاهله عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة له أكبر الأثر في شعور الحجيج من مختلف الاقطار بالنسبة للشريف .

وإلى تغير موقف الانجليز من الشريف عند ما رفض المعاهدة يرجع أبعد الأثر في إيقاعها بينه وبين ابن السعود فقد أعانت على اشعال الحرب بينهما كما فعات من قبل بين الأتراك والعرب وكان لهذه الخصومة أثرها إذ إمتنعت عن عون الشريف عند ما هجمت جموع النجديين الحجاز وقد حرضت عليه كل قبيل وأثارت عليه حملة عاصفة وهيات له جواً ملبداً بما قضى على سلطانه وأطاح بعرشه كما سنفضله فيما بعد .

انهزاسموديون فرصة الازمة التي وقع منها الشريف مع الانجليز واتخذ من موسم الحج مناسبة وتعلمه وهاجم الاخوان الحجاز في أغسطس سنة ١٩٢٤ وأدى ذلك إلى خلع الحسين والمناداة بالملك على في أكتوبر سنة ١٩٢٤ بعد انسحاب الهاشميين إلى جده .

وتوسط الحزب الوطني الحجازي إلى أبو السعود فأجابهم بأنه (لا يمكن نشر روح السلام في الجزيرة مطلقا مادام الحسين وأولاده حكام الحجاز وأنه لا يقصد الطمع في امتلاك الحجاز والتسلط عليها ولهذا فهو يترك للعلم الاسلامي أمر تلك البلاد المقدسة ... وختم كلامه فقال (وإذا خرج الحسين وأولاده فأنتم آمنون في بلادكم) وهكذا أعلن الملك عبدالعزيز أنه سيجعل أمر البلاد الاسلامية شوري بين المسلمين حقنا للدماء وانهاء للقتال .

بين الشريف والانجليز

بينما فيما سبق من القول أن الانجليز بدأوا الشريف بالإساءة وكشفوا له الخديعة بعد أن أعلن الثورة واطمأنوا إلى أن الحرب قد اشتعلت بين المسلمين التركي والعربي وقد تولى توجه دفة السياسة الانجليزية بمؤامراتها رجل حائن اسمه (لورنس) ادعى أنه صديق العرب وقد كشفت الأيام عن خبيثته عندما ألف كتابه عن بلاد العرب وسب كرامتهم وانهمم بكل نقيصة ، وليس هذا بعجيب ، فكثيراً ما صرح بتصريحات حملت معنى اللتواء والعدوان والنية المبيتة ضد العرب كقوله (إنها (أى انجلترا) ستحافظ على كلمتها لفظاً ومعنى وأن العهد المتأخر ينسخ العهد القديم)

ولسكن الذي يحز في النفس ويزعج المؤرخ ، هو هذا الاستسلام العجيب من الشريف وكتائبه لهذا الرجل وانيادهم له وأكبارهم وتصديقهم لدولته دون تحفظ أو احتياط .

وقد بدأت حلقات الخلاف بين الشريف والانجليز مبكرة في ٢٩ أكتوبر ١٩١٦ عندما أعلن الشريف نفسه ملكاً على العرب واحتج لذلك (أبو السعود) واضطر الانجليز تحت ضغطه إلى عدم الاعتراف بهذا اللقب وقد أدى الشريف وكتائبه الجهد الكبير في استخلاص الحجاز وفلسطين وسوريا من أيدي الأتراك طمعاً في تحقيق آمالهم في إقامة الدولة العربية ، ولسكن الأمور تسكفت لهم على وجهها الصحيح بمجرد أن ألقي الجنود سلاحهم ١٩١٧ قد اتضح أن هناك وعدين أعطيا وهما نافذين لا محالة وأنهما كما قال الحائن لورنس من العهود المتأخرة التي تنسخ العهود القديمة .

ذلك هما (١) معاهدة سكس باكو بين انجلترا وفرنسا على تقسيم فلسطين وسوريا والعراق وقد وقعت سنة ١٩١٦ وظلت سرّاً مكتوماً إلى أن ألقي الروس صوراً منها معسكر العرب فكذبها لورنس وقال أن أمراً كهذا لم يتم بعد .

(٢) تصريح بلفور ٢ سبتمبر ١٩١٧ والعجيب أن التصريحين كانا يبدآن أشداء الأقوياء القادرين فقد نفذ

الفرنسيين معاهدتهم بالقوة وأخرجوا فيصل بعد تنويجه ملكا على دمشق وحطموا قوة العرب بحربة
ميسلون بالغدر والبغى .

واستولى اليهود على فلسطين وبدأت هجرتهم إليها بقوة السلاح والمال .

هنا تخرج الموقف بين الشريف والانجليز لاقول الانجليز تصفية ما بينهم وبين الملك حسين بمعاهدة سياسية
وقد قدروا أنه يكفي أن يكون ملكا على الحجاز فحسب ، وقد حاول هذه المحاولة (السكولونيل لورنس)
وقد رفض الشريف هذه المعاهدة لوجود مواد تتضمن قبوله للحالة الجديدة القائمة في سوريا وفلسطين
وقد جاء في هذه المعاهدة المادة التالية .

(إن جلالة الملك حسين يعترف بالمركز الخاص لصاحب الجلالة البريطانية في العراق وفلسطين)
وقد أعلن الشريف رأيه أزاء مسألة فلسطين والصهيونية بدون تحفظ حتى صرح متحدث رسمي بالسلطان الحكومة
البريطانية (بأن الحكومة لم تظمن إلى موقف الملك حسين الجديد (الخاص بمقاومة الصهيونية في فلسطين)
إذ كتب في جريدة القبلة في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٢ يقاوم وعد بلفور ويشجع الأحزاب العربية مما دعا إلى
أن يصرف الانجليز النظر عنه)

المفاوضات

في عهد وزارة العمال (مكدونالد) ١٠ ديسمبر ١٩٢٣ أعلن ان المفاوضات الدائرة بين وزارة الخارجية
ومندوب ملك الحجاز انتهت ، وأن إنجلترا تخير العرب بين أمرين
فأما أن تدخل فلسطين في المعاهدة وينص فيها على قبول وعد بلفور بعد تفسيره تفسيراً رسمياً بأنه لا ينطوي
على إنشاء حكومة يهودية في فلسطين التي تكون موطناً عاماً لليهود يلجأون إليه متى شاءوا وذلك طبقاً للكتاب الأبيض
(٢) وأما إخراج فلسطين نهائياً من المعاهدة والسكوت عنها وإنشاء الاتحاد العربي من العراق وشرق
الأردن والحجاز .

ولكن الشريف رفض ذلك وطالب بمفاوضات جديدة بأن ترسل إليه إنجلترا مندوباً بريطانيا إلى
الحجاز أو يرسل هو مندوباً حجازياً إلى لندن فأجيب بأن (معتمد بريطانيا في جده هو الواسطة المثلى
للخطابات بين الحكومتين)

وأخذ مندوب الشريف يسافر إلى لندن (يوليو ١٩٢٣) ويعود إلى مكة (يونيو ١٩٢٤) ثم يعود إلى
لندن (سبتمبر ١٩٢٤) ثم وصلت الأنباء قبل أن يصل إلى لندن بمهاجمة السعوديين للحجاز واحتلالهم الطائف
فتنازل الملك حسين بسقوط مكة وعلى أثر ذلك أذاعت لندن في ١٥ أكتوبر ١٩٢٤

• إنه بالنظر إلى تنازل الحسين عن الملك فليس في وسع الحكومة البريطانية أن تواصل المفاوضات (١١١)
وبذلك اعتبرت إنجلترا نفسها في حل من الوعود التي قطعها للشريف ، واعتبرتها وعود شخصية في حين أنها
وعد قطعته للعرب وأيس للشريف

شروط المعاهدة

في المعاهدة التي قدمها الانجليز للعرب تشابه عجيب مع مشروع ملنر ، وبين هذه الخطط التي اتبعت في مصر تقارب يشبه الاجماع على خطة واحدة ومن هذه الشروط التي قدمت للشريف :

• يعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذي للجلالة البريطانية في العراق وشرق الأردن وفلسطين ويتعهد بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع الجلالة البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضد نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد ،

ومن هذا النص يبين مدى ما في هذه المعاهدة من أحجاف ومدى الوضع الذي يريد الانجليز أن يضعوا فيه المسألة الاسلامية العربية

وقد عرض الانجليز على الشريف بالنسبة لفلسطين

(١) إنشاء حكومة عربية في فلسطين يرأسها الأمير عبد الله

(٢) تكون العربية والعبرية لغتين رسميتين لهذه الحكومة

(٣) يخضع اليهود لهذه الحكومة ويساعدون في إنشائها

(٤) تحدد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين بنسبة الحاجة

(٥) يساوى بين العرب واليهود في الوظائف

وقد رفض الشريف قبول هذه الشروط ، ومنها يتبين مدى ما حاكه الانجليز للعرب والمسلمين ومدى ما هيأوا

به سبيل الإقامة لليهود ليستقر بهم المقام (رسمياً) في فلسطين

وأن في هذه الشروط المعروضة تحقيق صريح لوعده بلفور

وقد عقد الفلسطينيون مؤتمرهم السادس في يافا ١٦ يونيو ١٩٢٣ فقرروا رفض المعاهدة لأنها تناقض

العهد المقطوعة .

والواقع أن الانجليز والفرنسيين معا تأمرا على اعداد فلسطين لليهود وقد عزز هذا المعنى صك الانتداب

الذي وضع فلسطين (في أحوال إدارية وسياسية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي

على أن يؤول ذلك في النهاية إلى إيجاد حكومة مستقلة بشرط ألا يعمل شيء يضر بحقوق غير اليهود

في فلسطين) .

وعمل الانجليز على تشجيع الهجرة واليهود دون مبالاة بالمعارضة الضمنية المتصلة التي أبداهها العرب وقد

أعانت الحكومة المدنية التي أبدلت بالحكومة العسكرية في فلسطين بعد مؤتمر سان ريمو على تحقيق مطالب

اليهود وقد عهدت رئاستها إلى يهودي متطرف هو (هربرت صمويل) وسنفصل ذلك في مكانه .

وقد أدى رفض الشريف لتوقيع المعاهدة إلى قيام الخلاف الفعلي بينه وبين انجلترا ، ذلك لأن الحلفاء

اعتبروا عهد جمعية الأمم جزءاً من معاهدة فرساي ، واعتبروا الدول التي قاتلت إلى جانب الحلفاء ومن

جملتها الحجاز مؤسسة لجمعية الأمم بشرط أن توقع على المعاهدة وتقر نصوصها . وأبى الحسين توقيع المعاهدة حين عرضت عليه لأنها أقرت بقبول الانتداب لبلاد العرب ولا تتفق مع اليهود الصريحة المقطوعة له بالاستقلال .

وقد أرسل الحسين إلى الانجليز مذكرة جاء فيها :

« نهضت مع شعبي بعد نيل ضمانات تضمن مصالحهم ومستقبلهم وخضت غمار القتال جنبا إلى جنب مع الحلفاء ، وكنت وطيذ اليقين بأننا نحارب في جانب شرف الأمة الانجليزية فأقدمت على خوض القتال وأنا ممتلئ ثقة في حين كانت فيه راجحة فإني العرب دعوتني في العراق وسورية وفلسطين وكانت بيدي وثائق الساسة المستوائين ، وتصريحاتهم الرسمية والخصوصية التي فاهوا بها على رموس الأشهاد وكلها تجمع على أن العرب سيفوزون بوحدتهم واستقلالهم .

وقد أبى العرب صلاحا منفردا يعقد مع العدو الذي عرض عليهم أن ينيلهم استقلالهم وقطع لهم المواثيق والضمانات المؤكدة

فلهذه الأسباب ألفت نظر انجلترا إلى ما حل بحلفائها العرب ، فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة وأخذ العالم الاسلامي وقوى يرمياني بتهمة إني بعثت بلدانهم لبريطانيا لئلا يقع عليهم لوم إذا ما توسلوا بوسائل أخرى إلى درء هذا الذي يسود تاريخهم المجيد غير مكترئين للعواقب مهما كانت ... »
٢٤ نوفمبر ١٩٢٣ الحسين بن علي

• • •

وقد اضطرت ثورة (ابن السعود) وزحفه أن يترك الشريف جزيرة العرب وقد أخذت انجلترا في ترضية الشريف وأبناءه فاعدوا فيصل لعرش سوريا وعبد الله لعرش العراق وأسكن الفرنسيين بعد انتصارهم في معركة ميسلون التي قتل فيها ٨٠٠ عربي والتي انتهت باحتلالهم لسوريا عملت على إلغاء عرش فيصل في سوريا فرشحته انجلترا لعرش العراق ، وأنشأت إمارة شرق الأردن للأمير عبد الله .

وقد وصل الشريف إلى عمان في أول يناير ١٩٢٤ وفي عمان علم بأن الأتراك قد ألغوا الخلافة فسعى (الأمير) عبد الله لأخذ البيعة لأبيه بالخلافة وأخذت البيعة في ١٢ مارس ١٩٢٤ ودخل السعوديون الطائف في ٧ سبتمبر ١٩٢٤ بعد مبايعة الحسين بالخلافة بثمانية أشهر

وكتبت جريدة التيمس تقول (لو وقع الشريف حسين المعاهدة لأنقذته انجلترا من ابن السعود)

وهكذا استغل الانجليز الثورة العربية وقتلوا روحها وتنكروا ليهودهم إزائها وجعلوها لمصلحتهم وكذلك قتلوا روح ثورة ١٩١٩ في مصر وسلبوا مجدها لجيل من الزعماء يؤمن بصدقة الانجليز ويقبل المساومة في حق الوطن ويرتضي التفاهم والاذعان .

وقد أخذ على (الشريف) استثنائه (١) بالحكم وتفرد به بالعمل ومحاولة ابقاء القديم على قدمه وتجاهله روح العصر وإهماله لإعداد القوى والمعدات . كل ذلك عجل بالقضاء على دولته فلم تعيش سوى تسع سنوات ولعل في (٢) ذلك عبرة لأمراء العرب الذين لا يزالون يميلون إلى الاستئثار ويظنون أنفسهم من طينة أسمى من الشعب . وقد ابتهجت الصحف اليهودية يوم سقوط الدولة الهاشمية وانهارها لأنه حرر بريطانيا من عيودها وأنقذ اليهود من خصم عنيد كان يضايقهم . وحذت الصحف البريطانية حذوها فقالت إن بريطانيا تخلصت من عيودها للعرب بسقوط الدولة الهاشمية .

المؤامرة الانجليزية على الاسلام

أظلت الخلافة العثمانية العالم الاسلامي أربعة فرون كاملة بدأتها محاربة فاتحة وظلت قوية ناهضة ترهب العرب وتزاحمه في قوة وثبات ثم جنحت بعد إلى العزلة والغفلة فغلها النعاس طويلا ، استيقظت خلاله دول الغرب وأخذت تنزوا إلى الشرق وهي تطمع في احتلاله واستعماره .

وقد كانت دول الغرب تندفع إلى الشرق وهي حذره خائفة فقد كانت تخشى روح محمد الفاتح وسليمان القانوني تلك الروح القوية الجبارة التي هزت أوروبا وأقرت فيها حضارة الاسلام وحاصرت فينا حتى أزعمها الحصار وكانت في هذا الزحف إلى الشرق تصدر عن خصومة حاكمة طاغية هي خصومة الهزائم الضخمة التي منبت بها الحملات الأوربية الصليبية في القرون الوسطى إلى الشرق وإلى بيت المقدس وردتها مهنر وسوريا وردتها صلاح الدين على أعتابها مهزومة كليلة .

وباسم هذه الخصومة الحاكمة الصليبية اخذت أوروبا تناوى الشرق وتناهضه وتحاول أن تستعبده وتستذله وتجعله مزرعتها ومرعاها ، ولقد آتتها ظروف الضعف والذل والغفلة لأن تمد يدها وثبتت قواعدها وتقيم أركان احتلال أمتد إلى الشرق الاسلامي كله ولم يواجه الكثير من المقاومة أو النضال .

وأخذت أوروبا وفي مقدمتها إنجلترا تقاوم روح الاسلام ووحدة الأمة وجلال اللغة وكرامة الوطنية بوسائل شتى فتغلغت في ميدان الاقتصاد والسياسة والاجتماع والروحية فأصاب الأوضاع كلها بالكثير من الأثام والاختلاء .

وانتقلت أوروبا وإنجلترا في مقدمتها من حركة الاستعمار باسم التجارة إلى الاحتلال المقنع فلما أقيمت الحرب الكبرى الأولى كانت أوروبا قد أعدت عدتها وضربت ضربتها فزقت الشمل وهدمت الخلافة وفرقت المسلمين ثم مزقت العرب

ولا شك أن الخصومة التي استفحلت بين العرب والأتراك كانت من صنع إنجلترا ودول أوروبا

المتربصة بالرجل المريض الدوائر وليس من شك أن العرب في سوريا والحجاز ومصر كانوا حديثي عهد بالسياسة والأعيان ومؤامراتها ودسائسها ، فاستطاعت انجلترا الطاغية الباغية أن تتلاعب باليهود والوثائق والمواثيق وإن تتآمر مع -بق اصرار على تمزيق وحدة العرب وهدم الوطنية المصرية جميعا .

ومما يحز في النفس أن العرب أسرعوا في إعلان ثورتهم وتنفيذ خططهم في إحياء القومية العربية قبل أن تنضج ، وقد استغللت انجلترا الحركة أبعد الاستغلال فبعد أن أعلن الشريف الخصومة السافرة لتركيا ضربت انجلترا على يده فأوقفت نشاطه وحصرت الثورة عند حدود شبه جزيرة العرب فحسب وما أن انتهت الحرب حتى تبين للشريف أن المملكة العربية التي تعاهد الانجليز معه على إنشائها قد قسمت بالمعاهدات السرية بين انجلترا وفرنسا واليهود . . .

وقد أزعج الشريف هذا وأزعج العرب وخصام العرب الشريف وأعلن الشريف خصومته للانجليز واكتفى الانجليز بأن جعلوا منه ملكا على الحجاز فحسب ، وأرسلوا إليه معاهدة ليوقعها يقر فيها بالأوضاع التي أرادها الانجليز في سوريا وفلسطين فرفض ذلك

عندئذ انتهر أبو السعود الفرصة فهاجم الحجاز وامتنع الانجليز عن معاونة الشريف أو مديد المساعدة إليه فانتصر النجديون وبذلك أفلت الدولة الهاشمية قبل أن تستفتح عهدها وهكذا ضاعت على العرب الدماء الغالية والجهود الضخمة ، وهكذا قضى على العرب الذين استخلصوا بلادهم بأنفسهم وجيوشهم من مسلمي تركيا أن يسلموها إلى صليبي أوروبا

وقد انتهى أمر انجلترا بأن أيدت (أبو السعود) وأباحت لفرنسا احتلال سوريا ولبنان ، وقسمت فلسطين قسمين جعلت في شرقي نهر الأردن منها أمانة أرضت بها أحد أبناء الشريف وأعانت الثاني على أن يكون ملكا للعراق وبذلك أرضت الهاشميين والسعوديين والفرنسين جميعا

وهكذا نجحت انجلترا الغادرة في تمزيق الجامعة الاسلامية ثم سحق الوحدة العربية وأخذت تعمل بجيوشها الحربية ومعاهدها وجامعاتها وثقافتها على خلق جيل جديد لا يعرف الإسلام والعروبة ، وإنما يعرف لندن وباريس ؛ ولكن الموجه ما لبثت أن كرت عائدة تحمل الخير والنور إن الانجليز خصوم الاسلام لاشك في خصومتهم وأن في مؤامراتهم هذه لعبرة جليلة واضحة على النية المدبرة لتمزيق الوطن الاسلامي وقتل روحه المعنوية